فضيلة الإمام

محمد متولى الشعراوى

دعاء الانبياء والصالحين

جمع وإعداد

سعيد عثمان

الناشر

الدار العالمية للكتب والنشر

⋆ دعاء الأنبياء والصالحين

⋆ لفضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى

⋆ جمع وإعداد : سعيد عثمان

⋆ الطبعة الأولى (١٩٩٨)

⋆ رقم الإيداع (١٠٧٤٣/٩٨)

⋆ الناشر : الدار العالمية للكتب والنشر

(القاهرة)

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

«لا تعجزوا فى الدعاء ، فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد»

(رواه ابن حبان والحاكم)

المقدمة

من رحمة الله تعالى بخلقه أنه علمهم كيف يدعونه ، كما علمهم كيف يعبدونه وماذا يسالونه ؟ وخير الدعاء هو ما كان بكلماته سبحانه ... لأن الخالق جل جلاله هو الأعلم بما يصلح لنا ... من هنا كان دعاء القرآن ... هو خير دعاء نتجه به إلى الله تعالى لأنه من الله ... وإلى الله .

ولكن ما هى فلسفة الدعاء فى القرآن الكريم ؟

هل علمنا كيف ندعوه طلباً للدنيا ... هل علمنا أن نسأله المال أو المنصب أو أن نمتلك أرضاً أو أن نصبح ذا نفوذ ؟ أم علمنا أن نسأله من فضله فى الآخرة وأن يقينا الشر فى الدنيا ويزيد من اتجاهنا إليه لنصبح من أهل الجنة ؟

إننا لو استعرضنا آيات الدعاء فى القرآن الكريم نجد أن معظم هذه الآيات يتركز بالنسبة للدنيا على التوبة وغفران الذنوب والبعد عن المعاصى ... والقرب من الله سبحانه وتعالى والمنزلة الرفيعة فى الآخرة ... لماذا ؟

لأن الحياة الدنيا عند الله ليست هى الحياة الحقيقية ولكن الحياة الحقيقية هى الآخرة ....

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ومَا هذِهِ الحَيَاةُ الدّنْيآ إلاّ لهْوٌ ولَعبٌ وإنّ الدّارَ الأخِرَةَ لَهِىَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الآية ٦٤ سورة العنكبوت]

وكلمة الحيوان معناها الحياة الحقيقية ... لماذا ؟ لأنها حياة خالدة لا موت فيها ، لا تفوتك فيها النعمة ولا تفوتها ، فأنت فى نعيم مقيم ، وليس هذا النعيم بقدراتك أنت ، أو بقدرات البشر ، ولكن النعيم فيها بقدرة الله سبحانه وتعالى ... وفرق هائل بين قدرات الله وقدرات البشر ثم هى لا تعب فيها فأنت مطالب بأن تعمل وتشقى ولكن بمجرد أن يخطر الشيء على بالك تجده أمامك .

إن حياة كهذه لجديرة بأن يطلبها كل مؤمن وأن يعمل من أجلها وإن المؤمن الذكى هو الذى يطلب ما هو باق ودائم وأبدى ، ولا يطلب متعة تستمر أعواماً قليلة وتنتهى .

ولكن هل أغفل الحق تبارك وتعالى الدعاء من أجل الدنيا؟

لا ... وإنما جعله محدود الحجم لهذه الحياة القصيرة التى نعيشها ... إنه سبحانه وتعالى لم يطلب من المؤمن أن يعتذل الدنيا ويتركها ؟ ولكن هناك مهام دنيوية كلف الله بها الإنسان ... ولابد أن يؤديها ليعمر الكون ... هناك الذرية التى يتركها الإنسان فى الدنيا بعد موته ... إن القرآن الكريم يعلمنا كيف ندعوه بشرط ألا ينسينا طلب الدنيا ... طلب الآخرة وكما جاء فى قوله تعالى :

﴿ومنهم من يقول ربنا ءاتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ صدق الله العظيم [الآية ٢٠١ سورة البقرة]

والله نسأل الهداية والتوفيق

محمد متولى الشعراوى

فأذكرونى أذكركم

اذكرونى ... أى كل هذه النعم والفضل عليكم يجب ألا تنسوها أن تعيشوا دائماً فى ذكر من أنعم عليكم فالله سبحانه وتعالى يريد من عباده الذكر وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم ... والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [الآية ١٥٢ سورة البقرة]

وفى الحديث القدسى يقول الله سبحانه وتعالى [أنا عند حسن ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وأن تقرب إلى بشبر تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتانى يمشى أتيته هرولة] .

هذه هى رغبة الكريم فى أن يعطى بشرط أن نكون أهلا للعطاء لأنه يريد أن يعطيك أكثر وأكثر ... فقوله تعالى "اذكرونى" أى اذكروا الله فى كل شىء فى نعمة ، فى عطائه ، فى ستره ، فى رحمته ، فى توبته .

يقول بعض الصالحين : سمعت فيمن سمع عن حبيبى رسول الله ﷺ أنك إذا أقبلت على شرب الماء فقسمه ثلاثاً ... أول جرعة باسم الله واشربها ، ثم قل الحمد لله وابدأ أشرب الجرعة الثانية وقل باسم الله وبعد الأنتهاء منها قل الحمد لله ... ثم قل باسم الله واشرب الجرعة الثالثة واختمها بقولك الحمد لله فما دام هذا الماء فى جوفك فلن تحدثك ذرة من جسدك بمعصية الله جربها يوماً فى نفسك وقل باسم الله واشرب ، وقل الحمد لله وكررها ثلاث مرات فإنك تكون قد استقبلت النعمة بذكر المنعم وابعدت عن نفسك حولك وقوتك ، وأنهيت النعمة بحمد الله ولكن لماذا الماء ؟ لأن الماء فى الجوف أشبع من أى شىء آخر .

قوله تعالى : **﴿وأشكروا لى ولا تكفرون﴾** الشكر على النعمة يجعل الله سبحانه وتعالى يزيدك منها وأقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [من الآية ٧ سورة إبراهيم]

وشكر الله يذهب الغرور عن نفسك فلا تفتنك الأسباب وتقول أوتيته على علم منى (ولا تكفرون) أى لا تستروا نعم الله بل أجعلوها دائماً على ألسنتكم ... فإن كل نعمة من نعم الله لو استقبلت بقولك "ما شاء الله لا قوة إلا بالله" لا ترى فى النعمة مكروها أبداً لأنك حصنت النعمة بسياج المنعم ... أعطيت لله حقه فى نعمته فإن لم تفعل وتركتها كأنها منك وأنت موجدها ونسيت المنعم وهو الله سبحانه وتعالى فإن النعمة تتركك .

دعاء سيدنا محمد ﷺ

﴿حَسبِىَ اللّهُ لاَ إِله إلاّ هُوَ عَلَيه تَوَكَّلتُ وَهُوَ رَبُّ العَرشِ العَظِيمِ﴾

[الآية ١٢٩ سورة التوبة]

... (حسبى الله) توكد على أن حسبك فى المكان الصحيح ، ولله المثل الأعلى .

أنت تقول : "حسبى نصرة فلان" ، لأنك تثق فى قدرة هذا ، ولكن القوة فى الحياة أغيار ، وحين تقول "حسبى الله" فلا إله غيره سبحانه ، ولا إله آخر يعارضه فى هذا أو فى غيره .

وقل : (حسبى الله)[1] برصيد (لا إله إلا هو) ، و(لا إله) ، و(إلا هو) إثبات، إذن : ففى هذا القول (لا إله إلا هو) نفى منطقى مع سلب ، وإثبات منطقى مع الإيجاب ، وهنا نفى أىّ ألوهية لغير الله ، والاستثناء من ذلك هو الله .

ورحم الله شيخنا عبد الرحمن عزام حين ترجم عن محمد إقبال[2] شاعر باكستان الكبير فقال :

إنما التوحيد إيجاب وسلب		فيها للنفس عزم ومضاء

إيجاب فى (إلا هو) ، وسلب فى (لا إله) فيها للنفس عزم ومضاء أى : هما للنفس قطبا الكهرباء ، فاسلب الألوهية من غير الله وأثبتها لله .

والناس كما نعلم ثلاثة أقسام : قسم ينكر وجود إله للكون مطلقاً وهم الملاحدة ، وقسم ثانى يقول : إن هناك الله الذى يوحده المسلمون لكن له شركاء ينفعوننا عند الله وقسم ثالث يقول بوحدانية الله .

---

(١) الحسيب : اسم بمعنى كاف ... (وحسبى الله) أى يكفينى الله .

(٢) محمد أقبال شاعر ومفكر إسلامى جاهد بعلمه فى سبيل الإسلام وتحرير بلاده وله آثار أدبية وشعرية تميل إلى الإسلام وتدرس فى المؤسسات العلمية وهو باكستانى المنشأ إسلامى الوطن عالمى الفكر – ترجم له فى مصر الدكتور عبد الرحمن عزام والصاوى شعلان .

وساعة نقول (لا إلـه إلا هـو) تكـون قـد أثبتنـا الألوهيـة للـه ، واثبتنـا أن لا شريك له ، وأثبتنا ألا إله غيره ، وسبحانه يقول :

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وهذا أمر طبيعى، ويمكن أن نعرفه بالحساب ، ولذلك جاء بـ ﴿حَسْبِيَ﴾ من الحساب . واحسبها فلـن تجد إلا الله وما دام حسبك اللـه ولا إلـه إلا هـو ، فسبحانه يبسـط عليك حمايتـه ونصرته لك ، فمن العقل أن تضع نفسك بيـن يـدى رسـولك ، الـذى بلغـك البـلاغ الكامل عن الله ، وأن تتوكل عليه سبحانه .

وما دام سبحانه هو حسبك ولا إله إلا هو ، والواجب يفرض عليك أن تظل فى مَعيَّته سبحانه ، ومعية الله مرحلتان : الأولى بأخذ الأسباب التى أمدّ بها خلقه، ومعيّـة إيمـانك المطلـق بـأن الأسباب إن عجـزت معـك ، فـأنت تلجـأ إلـى مسبِّب الأسباب الموجود وهو رب الوجود .

وترى – مثلاً – الناس وهـى تحتـاج إلـى الميـاة ؛ لأنـهـا ضـرورة للحيـاة ؛ فيذهبون إلى البئر فلا يجدون الماء رغم وجود البئر ؛ لأن الميـاة التـى تـأتى مـن جوف الأرض لم تعد تتسرب إليه ، لماذا ؟ لأن المخـزون مـن مـاء المطـر الـذى كان يأتى من أعالى الجبال ويتسرب تحت الأرض قد نفد ، ولهذا نحتاج إلـى مـدد من أمطار السماء ، لتجرى إلى المسارب تحت الأرض وتعود المياة إلى البئر .

وإذا جفت الآبـار المحيطـة بنـا ، هـل نيـأس ؟ لا ؛ لأن ربنـا بيـن لنـا : أرفعوا[1] أيديكم لربكم – إذن – فنحن إذا استنفدنا الأسباب نطلـب مـن المسبب ، ولذلك أتحدى أن يستنفد وأحد أسباب الله الممدودة إليه ، ويلجأ إلى الله فيرده .

إن يـد اللـه ممـدودة لنـا بالأسـباب ولا يصـح أن يهمـل إنسـان ولا يـأخذ بالأسباب، ويقول : أنا متوكل على الله ، إن على الإنسان أن يأخذ أولاً بالأسباب وأن يستنفدها ، وبعد ذلك يقول : ليس لى ملجأ إلا أنت سبحانك ، واقرأ إن شئت قول الله سبحانه :

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ....﴾ [الآية ٦٢ سورة النمل]

---

(١) ارفعوا أيديكم بالدعاء والتضرع بشرط الاستجابة والإيمان به تجدون الإجابة مع الرشاد .

والمضطّر : هو من استنفد أسبابه ، وليس له إلا الله . لكن أن يقول إنسان: أنا أدعو الله ليل نهار وأسبحه سبحانه وأقرأ سورة يس مثلاً ، ولا يستجيب الله لدعائى[1] . ونقول لمثل هذا القائل : أنت لا تدعو عن اضطرار ولم تأخذ بالأسباب ، خذ بالأسباب التى خلقها الله ، أولاً ، ثم ادْعُ بعد ذلك . ولا تدْعُ إلا إذا استنفدت الأسباب ؛ فيجيبك المسبِّب ؛ وبذلك لا تفتن بالأسباب ، فحين تمتنع الأسباب ؛ تلجأ إلى الله . ولو كانت الأسباب تعطى كلها لفُتِنَ الإنسان بالأسباب ، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [الآية ٧ سورة العلق]

لذلك نجد الحق يبين دائماً أن كل الأسباب بيده ، فنرى من يحرث ويبذر ويروى ويرعى ، ثم يقترب الزرع من النضج ، وبعد ذلك تأتى موجه حارة تميته، أو ينزل سيل يجرفه . إذن : خذ بالأسباب واجعل المسبب دائماً فى بالك ، وهنا يصح توكلك على الله .

وكثير من الناس يخطىء فى فهم كلمة "التوكل" ، وأقول : إن التوكل يعنى أن تأخذ ، أولاً ، أسباب الله التى خلقها سبحانه فى كونه ، فإن عزت الأسباب ولم تصل إلى نتيجة ؛ فاتجه إلى الله ، مصداقاً لقوله : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ .

ونحن ندعو أحياناً عن غير اضطرار ونهمل الأسباب ، والمثال تجده فى حياتنا حين يقول الابن لأمه : "ادعى لى حتى أنجح" وتجيب الأم الأمية قائلة كلمة بسيطة هى : "ساعد الدعاء بقليل من المذاكرة" وهى بذلك تدل ابنها على ضرورة الأخذ بالأسباب .

---

(١) من آداب الدعاء ألا يستبطىء الداعى استجابة الله لدعائه ، فتجده يمل ويدع الدعاء ، بينما كان عليه أن يدرك أن الله يريد الأصلح لعبده ، فقد يدعو عبد بما يظن أنه خير له ، ولكن علم الغيوب أنه شر له ، وفى هذا يقول رسول الله ﷺ : ((لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل . قيل : يا رسول الله ما الاستعجال ؟ ، قال يقول : قد دعوت وقد دعوت ، فلم يستجب لى فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء)) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٣٥) الرواية الثالثة للحديث .

إذن : فمعنى التوكل ، أن تستنفد الأسباب التى مَدَّتها يد الله إليك . فإذا استنفدتها ؛ إياك أن تيأس ؛ لأن لك ربّاً ، وهو سبحانه ركن شديد ترجع إليه .

ومثال آخر : إذا كنت سائراً فى الشارع ومعك جنيه واحد مثلاً ثم وقع منك أو سُرِق ، ولا تملك فى البيت أو فى البنك مليماً واحداً ، هنا تغضب وتحزن ، أما إن كان فى البيت عشرة جنيهات ؛ فنسبة الغضب والحزن ستكون قليلة ، وإذا كان ، فى البيت عشرة جنيهات وفى البنك مائة جنيه ، فلن تحزن أو تغضب لضياع الجنيه الواحد .

وهكذا تثق بالمثل عوضاً عن المثل ، وأفلا تثق بواهب هذا المثل عن عوض المثل ؟

إذن : فالتوكل هو أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب[1] والكسالى هم من يريدون أن يكون التوكل للجوارح وليس القلوب .

وكان من الممكن أن يغيّر الحق الأسلوب فى الآية فيقول : توكلت عليه . بدلاً من ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ ولكن إن وقفت الفهم عن قوله الحق ، ستجد أن الإنسان إن قال : "أنا اعتمدت عليك" فقد تعطف قائلاً : "وعلى فلان وعلى فلان" . ولكن قولك : عليك توكلت لا يمكن أن تعطف من بعدها ، وفيها تنزيه لله ولا أحد غيره يتوكل عليه الخلق ، مثلما تقول فى الفاتحة : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أى : لا نعبد غيرك ، فتكون قد قصرت العبادة عليه سبحانه .

وتوكلك على الله له رصيد ؛ لأنه ربك ورب الكون الذى أستقبلك ، ولاتصل قدرتك إليه ، فانت فى الأرض تحرثها ، وتبذرها ، وترويها ، ثم تأخذ من عطاء الله لك ؛ فهو ربك ، ورب الكون الذى استقبلك ، وأصبح هذا الكون مسخراً لك ، وأنت لم تكن قادراً على تسخير الكون .

---

(١) يقول عز وجل ﴿ومن يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بالغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لكل شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [آية ٣ سورة الطلاق]

صحيح أنك قد تُسخِّر الدابة وتربطها وتمتطيها وتحمل عليها السماد مثلاً وكل ذلك مسخر لك وفى قدرتك ، وهذا من فضل الله عليك ، ويزيد فضله سبحانه ، وترى مخلوقات مُسخَّرة لك ، وليست فى قدرتك ؛ فالشمس مُسخَّرة لك؛ تشرق كل يوم بالدفء وبالحرارة ، وكذلك القمر ، والغمام ، وكل هذه مخلوقات ليس فى قدرتك السيطرة عليها ، بل سخرها الله لخدمتك .

وربك ورب الكون الذى استقبلك سخر لك ما ليس فى يديك ، وهو سبحانه رب الملكوت الذى يدير كل ذلك وأنت لا تراه ، وهو الذى يدير كل هذه الأشياء ، فلا تنظر إلى ظواهر العطاء فقط ، بل انظر إلى مسببات العطاء فى ظواهر العطاء ، ولا تلتفت إلى ظاهرة إلا لتعرف ما وراء هذه الظاهرة . وما وراء أى ظاهرة كثير .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ نعم ، هو رب الكون الذى استقبلك وسخر لك ما فى يدك وما ليس فى يدك ، وما وراء المرئيات من عالم الملكوت ؛ ليدير بكمال قدرته كل شىء ، وكل ما فى الكون ملك لله .

وله سبحانه العرش العظيم ، فما هو العرش ؟ نعرف لأول وهلة أن العرش هو السقف(١) ، فحين تبنى دوراً واحداً تصنع له السقف ؛ ليحميك من وهج الشمس والمطر ، وإن كانت الأرض رخوة فالمبانى تهبط ، وبنينا السقوف حتى تحمى الجدران من عوامل التعرية .

وقول الله سبحانه : ﴿الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ معناها : إستواء الأمر استواءً يدخل فيه كل مقدور ؛ ولذلك عبر سبحانه عن الملك مثلاً فى ملكة سبأ على لسان الهدهد فقال :

---

(١) العرش : الملك ، واستوى الملك على عرشه : أى : ملك . ومن معانيه أيضاً سرير الملك مثل قوله تعالى : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عظيم﴾ [الآية ٢٣ سورة النمل] ومنه أيضاً سقف البيت وقد يطلق على البيت نفسه ، وكلها معان تدل على استقرار الأمر وثباته . انظر اللسان (مادة : عرش) .

﴿إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾

[الآية ٢٣ سورة النمل]

العرش ، إذن رمز السيطرة ، وفى حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد أن الذى يأخذ الملك من واحد قبله يبدأ فى تطهير الجيوب المحيطة به ويبحث عن الأنصار ، لعيد ترتيب الملك بما يراه مناسباً له ؛ حتى تستقر له الأمور ، ثم يجلس بعد ذلك على العرش .

إذن : فالجلوس على العرش معناه استتباب الأمر إستتباباً نهائياً للمالك الأعلى .

وسبحانه يقول :

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ...﴾

[الآية ٧ سورة ٧]

وساعة تسمع كلمة "العرش" خذها على أنها رمز لاستتباب الأمر لله ، وأن كل شيء دخل فى حيز قدرته ، وفى حيز ﴿كن﴾ كما يستقر الأمر للملك المحَسٍّ، فلا يجلس على العرش ، ولا يهدأ ، إلا إذا استقرت الأمور . هذا ما نراه فى الأمور الدنيوية ، فما بالنا باستقرار كل الكون من الآن لله سبحانه وتعالى ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ....﴾ [الآية ٥٤ سورة الأعراف]

أى : أن الأمور قد استتبت له . وهكذا نجد أن كلمة "الْعَرْشِ" وردت فى عروش الدنيا ، وفى عرش الله سبحانه ، فعروش الدنيا[1] ترمز إلى استتباب الأمر لمن يجلس عليها ، والعرش بالنسبة لله رمز لاستتباب أمر الكون كله له سبحانه لا ينغص عليه شيء ولا يخرج من ملكه شيء .

والكون كله ، بكل ما فيه مستتب لكلمة "كن" ومخلوق بها وخاضع لسلطان الحق سبحانه وتعالى .

---

(١) إن عروش الدنيا تشير إلى استتباب الأمر لمن يملك عليها ، أما عرش الله فيشير إلى استتباب أمر الكون لله سبحانه .

وهنا يقول الحق : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ولا يوصف العرش بأنه عظيم إلا وفى أذهان الناس عروش الملوك التى نراها فى حياتنا ، مثلما قال الهدهد عن ملكة سبأ :

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[1] [الآية ٢٣ سورة النمل]

أى : بمقاييس البشر .

أما قوله تعالى هنا ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [الآية ١٢٩ سورة التوبة]

فهو بمقاييس رب البشر ، إنه عرش الخالق العظيم سبحانه وهو فوق التصور البشرى ؛ لذلك نفهمه فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ..﴾

[الآية ١١ سورة الشورى]

---

(١) عروش ملوك البشر محدودة المكان والزمان ، أما عرش الله سبحانه فلا حدود له فهو مالك الملكوت .

دعاء سيدنا محمد ﷺ والمؤمنين

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَتَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِيْنَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرنا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ .

روى أن الله عز وجل حينما سمع رسول الله محمد ﷺ والمؤمنين يقولون : ((ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا)) .

قال سبحانه : قد فعلت .

وعندما قالوا : ((ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به)) .

قال سبحانه : قد فعلت .

ولم يكلفنا الله سبحانه وتعالى إلا بما فى الوسع وهو القدر المشترك عند كل المؤمنين وهناك أناس تكون همتهم أوسع من همة غيرهم ومن تتسع همته فإنه يدخل بالعبادات التى يزيد منها فى باب التطوع ، ومن لا تتسع همته فهو يؤدى الفروض المطلوبة منه فقط وعندما يطرأ على الإنسان ما يجعل الحكم فى غير الوسع ، فإن الله يخفف التكليف فالمسافر تقول له الشريعة أنت تخرج عن حياتك الرتيبة وتذهب إلى أماكن ليس لك بها مستقر لذلك يخفف الحق عليك التكليف فلك أن تفطر فى نهار رمضان ، ولك أن تقصر الصلاة .

والحق سبحانه وتعالى يعلم أن الوسع قد يضيق لذلك فإنه جل شأنه يخفف حكم التكليف ويمنح الرخص عند ضيق الوسع ومثال ذلك قوله تعالى :

﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾ .

كانت النسبة فى القتال قبل هذه الآية هى واحداً لعشرة ، وخففها الحق وجعلها واحداً إلى اثنين لأن هناك ضعفاً ، وهكذا نرى أنه سبحانه سيخفف التكليف إذا ما زاد عن الوسع وكثير من الناس يخطئون التفسير ، فيقولون عن

بعض التكاليف إنها فوق وسعهم ولهؤلاء نقول لا . لا تحدد أنت الوسع ، ثم تقيس التكليف عليه ، بل انظر هل كلفك أو لم يكلفك ؟ فإذا كان قد كلفك الحق فأحكم بأنه كلفك بما فى الوسع وكل تكاليف الرحمن تدخل فى الوسع «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما أكتسبت» .

و(لها) تفيد الملكية والاختصاص وهى ماتفيد وتكسب النفس ثواباً ، و(عليها) تفيد الوزر ونلاحظ أن كل (الهاء) جاءت مع (كسبت) وكل (عليها) جاءت مع (اكتسبت) إلا فى آية واحدة يقول فيها الحق سبحانه وتعالى :

﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [الآية ٨١ سورة البقرة]

وهنا وقفة فى الأسلوب لأن (كسب) تعنى أن هناك ترفاً فى المعالجة الفعلية الحديثة بينها وبين كلمة (اكتسبت) لان (اكتسبت) فيها (أفتعل) أى تكلف ، وقام يفعل آخذ منه علاجاً ، أما (كسب) فهو أمر طبيعى إذن (فكسب) غير (اكتسبت) وكل أفعال الخير تأتى كسباً لا اكتساباً .

إذن فقول الحق **﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾** يوضح لنا أن فعل الشر هو الذى يحتاج إلى مجهود ، فإن انتقلت المسألة من اكتسبت إلى كسبت فهذه هى الطامة الكبرى ، ويكون قد أحاطت به خطيئته ويكون على كل نفس ما اكتسبت والعاقل هو من يكثر ما لنفسه ، لا ما عليها ، لأن الذى يقول ذلك هو الحق العالم المالك الذى إليه المصير ، فليس من هذا الأمر فكاك وبعد ذلك يقول الحق على لسان عباده المؤمنين **﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾** ، ولقائل أن يقول إن الرسول ﷺ طمأننا فقال : «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» .

فكيف يأتى القرآن بشىء مرفوع عن الأمة الإسلامية ليدعو به الناس ربهم ليرفعه عنهم ؟

على هذا المثل القائل نرد : هل قال لك أحد : إن رفع الخطأ والنسيان والاستكراه كان من أول الأمر ؟ لعل الرفع حدث بعد أن دعا الرسول ﷺ والسابقون من المؤمنين ، فما دام قد رفع – بضم الراء وكسر الفاء وفتح العين فمعنى ذلك أنه كان موجوداً إذن فلا يقولن أحد : كيف تدعو بشىء غير موجود

أو أن ذلك يدل على منتهى الصفاء الإيمانى أى الله يجب ألا يعصى إلا خطأ أو نسياناً ، وأن الله لا يصح ولا يستقيم أن يعصى قصداً لأن الذى يعرف قدر الله حقاً لا يليق منه أن يعصى الله إلا نسياناً أو خطأ ، لأن الخالق هو المنعم بكل النعم وبعد ذلك كلفنا ، وكان يجب ألا نقصد المعصية ولذلك فالحق سبحانه وتعالى قد سمى ما حدث من آدم معصية مع أنه يقول :

﴿ولقد عهدنا إلى ءَادم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً﴾

[الآية ١١٥ سورة طه]

وسمى الله النسيان فى قصة آدم معصية : **﴿فعصى آدم ربه فغوى﴾** فكان النسيان أول معصية ولكن الله أكرم أمة سيدنا محمد ﷺ فرفع عنها النسيان وفى مسألة آدم هناك ملحظ يجب على المؤمنين أن ينتبه إليه ، فآدم خلق بيد الله ونحن مخلوقون بقانون التكاثر وآدم تلقى التكليف من الله مباشرة وليس بواسطة رسول، وكُلِّف بأمر واحد وهو ألا يأكل من الشجرة .

فإذا كان آدم مخلوقاً من الله مباشرة ومكلفاً من الله مباشرة ولم يكلف إلا بأمر واحد وهو ألا يقرب هذه الشجرة ولم تكن هناك تكاليف كثيرة فماذا نسى ؟ وماذا تذكر ؟ إنها معصية إذن لقد كان النسيان بالنسبة لآدم معصية ، لأنه مخلوق بيد الله **﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى﴾**

[من الآية ٧٥ سورة ص]

لذلك فلم يكن من المناسب أن ينسى هذا التكليف الواحد وما كان يصح له أن ينسى ، ولعل سيدنا آدم نسى الحكمة يعلمها الله عز وجل ربما تكون ليعمر الأرض التى جعله الله خليفة فيها ، أما بالنسبة لأمة محمد فحينما نقول : **﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾** فكأننا يارب نقدرك ، حق قدرك ولا نجترئ على عصيانك عمدا ، وإن عصينا فإنما يكون العصيان نسياناً أو خطأ ، وهذه معرفة لقدر الحق سبحانه وتعالى .

ولكن ما النسيان ؟ وما الخطأ ؟

أولاً فيه "خطأ" وفيه "خطى" و "الخطء" لا يكون إلا إثماً ، لأنه تعمد ما لا

ينبغي ، فأنت تعلم قاعدة وتخطىء والذى أخطأ قد لا يعرف القاعدة فأنت تصوب له خطأه لأنه حاد عن الصواب .

ومثال ذلك : عندما تتعلم فى المدرسة أن الفاعل مرفوع ، والمفعول منصوب وفى وسط السنة يصححون لك القاعدة حتى تستقر فى ذهنك ، إنما فى ايام الامتحان هل يصحح لك المدرس أم يؤاخذك ؟ إنه يواخذك لأنك درست طوال السنة هذه القاعدة ، إذن ففيه خطئ وفيه أخطأ فأخطأ مرة تاتى عن غير قصد ، لأنه لا توجد قاعدة أنا خالفتها ، أو لم أعرف القاعدة وإنما نطقت خطأ ، لأنهم لم يقولوا لى ، أو قالوا لى مرة ولم أتذكر ، أى لم تستقر المسألة كملكة فى نفس ، لأن التلميذ يخطىء فى الفاعل والمفعول مدة طويلة ، وبعد ذلك ينضج وتصير اللغة ملكة فى نفسه إن كان مواظباً على صيانتها .

ويقول الحق من بعد ذلك : ﴿**ربنا لا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا**﴾ والإصر هو الشيء الثقيل الذى يثقل على الإنسان ومثال ذلك الإصر الذى نزل على اليهود ﴿**إن أردتم التوبة فاقتلوا أنفسكم أو تصدقوا أو زكوا بربع أموالكم**﴾ لكن الله لم يعاملنى كما عامل الأمم السابقة علينا ، وعندما نقول : ﴿**ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به**﴾ فنحن نصدق أن رسول الله ﷺ قال : ((قال الله نعم)) ومعنى قال الله نعم أنه سبحانه وتعالى أجاب الدعاء برفع المشقة عن الأمة .

أى أن الله لن يحملنا ما لاطاقة لنا به . وعندما نقول "وأعف عنا" فنحن نتوجه إلى الله ضارعين : أنت يا حق تعلم أننا مهما أوتينا من اليقظة الإيمانية والحرص الورعى فلن نستطيع أن نؤدى حقك كاملاً ، ولذلك لا ندخل عليك إلا من باب أن تعفو عنا .

ومعنى العفو محو الأثر ، كالسائر فى الصحراء تترك قدماه علامة ، وتأتى الريح لتزيل هذا الأثر كأن هناك ذنباً والذنب له أثر ، وأنت تطلب من الله أن يمحو الذنب .

وعندما تقول : "وأغفر لنا" فأنت تعرف أن من مظاهر التكوين البشرى النية التى تريد أن تحول العزم إلى حيز السلوك والانفعال النزوعى ، فالمسألة

تحتاج منك إلى تدريب ، ومثال ذلك ، عندما يذنب واحد فى حقك فلك أن ترد عليه الذنب ، ولك أن تكظم الغيظ ، لكن يظل الغيظ موجوداً وأنت تحبسه ، ولذلك أنت تعفو .

لكن ماذا عن مثل هذا الأمر بالنسبة للخالق الذى له كمال القدرة ؟

إن الله قد لا يعذب العبد المذنب ولكنه قد يظل غاضباً عليه ، ومن منا قادر على أن يتحمل غضب الرب ؟ لذلك نطلب المغفرة ونقول : "واغفر لنا وارحمنا" فنحن ندعوه سبحانه ألا يدخلنا فى الذنب الذى يؤدى إلى غضبه والعياذ بالله علينا ، فالعفو هو أن نرتكب ذنباً ونطلب من الله المغفرة ، ولكن الرحمة هى الدعاء بألا يدخلنا فى الذنب أصلاً .

وعندما يقول الحق "أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين" فهذا اعتراف بعبوديتنا له وأنه الحق خالقنا ومتولى أمورنا وناصرنا ، وما دام الحق هو ناصرنا فهو ناصرنا على القوم الكافرين .

توبة آدم عليه السلام

إن الفرق بين معصية آدم عليه السلام ومعصية إبليس أن آدم اعترف بمعصيته وذنبه ولكن إبليس رد الأمر على الأمر فيكون آدم قد عصى ، وابليس قد كفروا والعياذ بالله .

ويقول الحق سبحانه وتعالى ﴿**فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه**﴾ هذه الكلمات التى تلقاها آدم . اراد العلماء أن يحصروها ما هذه الكلمات ؟

هل هى قول آدم عليه السلام كما جاء فى قوله تعالى :

﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنفُسَنَا وَإِن لَّم تَغفر لَنَا وتَرحَمْنَا لَنَكُونَنَّ منَ الخاسرِينَ﴾

[الآية ٢٣ سورة الاعراف]

هذه الآية الكريمة دلتنا على أن ذنب أدم لم يكن من ذنوب الاستكبار ولكن من ذنوب الغفلة بينما كان ذنب ابليس من ذنوب الاستكبار على أمر الله ولكن آدم

عندما عصى حدث منه انكسار فقال : يا ربى أمرك بألا أقرب الشجرة حق... ولكنى لم أقدر على نفسى . فأدم أقر بحق الله فى التشريع بينما ابليس اعترض على هذا الأمر وقال : ﴿**أأسجد لمن خلقت طيناً**﴾ ... الكلمات التى تلقاها آدم من الله سبحانه وتعالى قد تكون : ﴿**ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**﴾ وقد تكون : "اللهم لا إله إلا أنت سبحانك ربى وبحمدك أنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً فاغفر لى يا خير الغافرين ... أو أقبل توبتى يا خير التوابين ... أو قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله" المهم أن الله سبحانه وتعالى أوحى لآدم بكلمات يتقرب بها إليه سواء كانت هذه الآية الكريمة أو كلمات أخرى .

... لو نظرنا إلى تعليم الله آدم الكلمات ليتوب عليه لوجدنا مبدأ مهما فى حياة المجتمع لأن الله سبحانه وتعالى كما قلنا لو لم يشرع التوبة ولو لم يبشرنا بأنه سيقبلها لكان الذى يذنب ذنباً واحد لا يرجع عن المعصية أبداً وكان العالم كله سيعانى .

والله سبحانه وتعالى خلقنا مختارين ولم يخلقنا مقهورين ، والقهر يثبت صفة القدرة لله ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد منا أن نأتى عن حب وليس عن قهر ولذلك خلقنا مختارين وجعل لنا طاقة تستطيع أن تعصى وأن تطيع وما دام هناك أختيار فالإنسان يختار هذه أو تلك .

إن الله لم يخلق بشراً يختارون الخير على طول الخط وبشرا يختارون الشر فى كل وقت فهناك من الخيرين من يقع فى الشر مرة وهناك من الشريرين من يعمل الخير مرة فالعبد ليس مخلوقاً أن يختار خيراً مطلقاً أو أن يختار شرا مطلقاً ولذلك فأحياناً ننسى أو نسهو أو نعصى ومادام العبد معرضاً للخطيئة فالله سبحانه وتعالى شرع التوبة حتى لا ييأس العبد من رحمة الله ، ويتوب ليرجع إلى الله وقد جاء فى الحكمة : "رب معصية أورثت ذلاً وانكسار خير من طاعة أورثت عزا واستكباراً" .

وهكذا عندما نزل آدم ليباشر مهمته فى الحياة لم يكن يحمل أى خطيئة على كتفيه فقد أخطأ وعلمه الله كلمات التوبة فتاب فتقبل الله توبته .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿أنه هو التواب الرحيم﴾ كلمة تواب تدل على أن الله سبحانه وتعالى لا يأخذ عباده بذنب واحد لأنه سبحانه وتعالى لو تاب عن ذنب واحد لكل عبد من عباده كان تواباً والمبالغة فى الصفة تأتى من ناحيتين أولاً أن الأمر يتكرر عدة مرات من عدد قليل من الأشخاص أو من شخص واحد أو أن الأمر يقع مرة واحدة ولكن من اشخاص كثيرين .

فإذا قلت مثلاً : فلان أكول ، قد يكون أكولاً لأنه يأكل كمية كبيرة من الطعام فيسمى أكولاً إنه يتجاوز طعامه فى عدد مرات وجبات الطعام العادى للإنسان ولكنه يأكل كمية كبيرة فنسميه أكولاً فيأكل مثلاً عشرة أرغفة فى الأفطار ومثلها فى الغذاء ومثلها فى العشاء .

وقد يكون الإنسان أكولاً إذا تكرر الفعل نفسه كأن يأكل كميات الطعام العادية ولكنه يأكل فى اليوم خمس عشرة مرة مثلاً ... فالله سبحانه وتعالى تواب لأن خلقه كثيرون فلو اخطأ كل واحد منهم مرة يكون عدد ذنوبهم التى سيتوب الله عليها كمية هائلة فإذا وجد من يذنب عدة مرات فى اليوم فإن الله تعالى يكون تواباً عنه أيضاً إذا تاب واتجه إليه .

إذن مرة تاتى المبالغة فى الحدث وأن كان الذى يقوم به شخص واحد ومرة تاتى المبالغة فى الحدث لأن من يقوم به افراد متعددون .

إذن فآدم أذنب ذنباً واحداً يقتضى أن يكون الله تائباً ولكن ذرية آدم من بعده سيكونون خلقاً كثيراً ... فتأتى المبالغة من ناحية العدد .

وقوله تعالى : ﴿**إنه هو التواب الرحيم**﴾ سيدنا عمر رضي الله عنه جاءته امرأة تصيح وتصرخ لان ابنها ضبط سارقاً وقالت لعمر ما سرق ابنى إلا هذه المرة فقال لها عمر : الله أرحم بعبده من أن يأخذه من أول مرة لابد أنه سرق من قبل.

وأنا اتحدى أن يوجد مجرم يضبط من أول مرة .

وكلمة تواب تدل على أنه يضبط بعد مرتين أو ثلاثة ، فالله يستر عبده مرة ومرة ولكن إذا ازداد وتمادى فى المعصية يوقفه الله عند حده وهذا هو معنى تواب .

والحق سبحانه وتعالى تواب برحمته لأن هناك من يعفو ويظل يمن عليك بالعفو حتى أن المعفو عنه يقول : ليتك عاقبتنى ولم تمن على بالعفو كل ساعة لكن الحق سبحانه وتعالى تواب رحيم : يتوب على العبد ويرحمه فيمحو عنه ذنوبه .

دعاء إبراهيم عليه السلام

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِاللَّه وَالْيَوم الآخر قَالَ وَمَن كَفَر فَأُمَتِّعُه قَلِيلاً ثم أَضْطَرُّهُ إِلى عَذَابِ النَّارِ وبئسَ المصيرُ﴾ . [الآية ١٢٦ سورة البقرة]

يقول الحق سبحانه وتعالى **﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا﴾** وما دام الله قد جعله أمنا فما هى جدوى دعوة إبراهيم أن تكون مكة بلدا آمنا ... نقول إذا رأيت طلبا لموجود فاعلم أن القصد منه هو دوام بقاء ذلك الموجود ... فكأن إبراهيم يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يديم نعمة الأمن فى البيت ذلك لأنك عندما تقرأ قول سبحانه وتعالى :

﴿يأيُّهَا الَّذِين ءَامَنُواْ ءَامِنُواْ بِاللَّه وَرَسُولِه وَالكِتَاب الَّذى نَزَّل على رَسُولِهِ والكتَاب الذى أنزلَ مِن قَبلُ وَمَن يَكفُر بِاللَّه وملائكته وكتُبِه ورُسُلِهِ واليَوم الآخِرِ فَقَد ضَلَّ ضَلالا بَعيداً﴾ [الآية ١٣٦ سورة النساء]

هو خاطبهم بلفظ الإيمان ثم طلب منهم أن يؤمنوا ... كيف ؟

نقول إن الله سبحانه يأمرهم أن يستمروا ويداوموا على الإيمان ولذلك فإن كل مطلوب لموجود هو طلب لإستمرار هذا الموجود .

وقول إبراهيم : **﴿رب إجعل هذا بلدا آمنا﴾** أى يارب إذا كنت قد جعلت هذا البيت أمنا من قبل فأمنه حتى قيام الساعة ليكون كل من يدخل إليه آمنا لأنه موجود فى وادى غير ذى زرع وكانت الناس فى الماضى تخاف أن تذهب إليه لعدم وجود الأمان فى الطريق ... أو آمنا أى أن يديم الله تبارك وتعالى على كل من يدخله نعمة الإيمان .

وقوله تعالى : **﴿اجعل هذا بلدا آمنا﴾** تكررت فى آية أخرى تقول : **﴿اجعل هذا البلد آمنا﴾** فمرة جاء بها نكرة ومرة جاء بها معرفة ... نقول إن إبراهيم حين قال : **﴿رب اجعل هذا البلد آمنا﴾** ... طلب من الله تعالى شيئين ... أن يجعل هذا المكان بلدا وأن يجعله آمنا .

ما معنى أن يجعله بلدا ؟ هناك أسماء تؤخذ من المحسنات فكلمة غصب تعنى سلخ الجلد عن الشاه وكأن من يأخذ شيئا من إنسان غصب كانه يسلخه منه

كلمة بلد حين تسمعها تنصرف إلى المدينة والبلد هو البقعة تنشأ فى الجلد فتميزه عن باقى الجلد كأن تكون هناك بقعة بيضاء فى الوجه أو الدراعين فتكون البقعة التى ظهرت مميزة ببياض اللون ... والمكان إذا لم يكن فيه مساكن ومبان فيكون مستويا بالأرض لا يستطيع أن تميزه بسهولة ... فإن أقمت فيه مبانى جعلت فيه علامة تميزه عن باقى الأرض المحيطة به .

وقوله تعالى : ﴿**وارزق أهله من الثمرات**﴾ هذه من مستلزمات الأمن لأنه مادام هناك رزق وثمرات تكون مقومات الحياة موجودة فيبقى الناس فى هذا البلد ولكن إبراهيم قال : ﴿**وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم**﴾ فكأنه طلب الرزق للمؤمنين وحدهم .. لماذا ؟

لأنه حينما قال له الله : ﴿**وإِنِّيَ جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً**﴾

[من الآية ١٢٤ سورة البقرة]

قال إبراهيم : ﴿**وَمِن ذُرِّيَّتِى**﴾ [من الآية ١٢٤ سورة البقرة]

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿**لا يَنَالُ عَهدِى الظَّالمين**﴾

[من الآية ١٢٤ سورة البقرة]

فخشى إبراهيم وهو يطلب لمن سيقومون فى مكة أن تكون إستجابة الله سبحانه كالإستجابة السابقة كأن يقال له لا ينال رزق الله الظالمون فاستدرك إبراهيم وقال : ﴿**وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم**﴾ ولكن الله سبحانه وتعالى أراد يلفت إبراهيم إلى ان عطاء الألوهية ليس كعطاء الربوبية ... فإمامة الناس عطاء ألوهية لا يناله إلا المؤمن ، اما الرزق فهو عطاء ربوبية يناله المؤمن والكافر لأن الله هو الذى إستدعانا جميعا إلى الحياة وكفل لنا جميعا رزقنا وكان الحق سبحانه حين قال : ﴿**لا ينال عهدى الظالمين**﴾ كان يتحدث عن قيم المنهج التى لا تعطى إلا للمؤمن ولكن الرزق يعطى للمؤمن والكافر ... لذلك قال الله سبحانه وتعالى :﴿**ومن كفر**﴾ وفى هذا تصحيح مفاهيم بالنسبه لإبراهيم ليعرف ان كل من إستدعاه الله تعالى للحياة له رزقه مؤمنا كان او كافرا والخير فى الدنيا على الشيوع فما دام الله قد إستدعاك فإنه ضمن لك رزقك .

إن الله لم يقل للشمس أشرقى علـى أرض المؤمـن فقط ولا يقل للهـواء لا يتنفسك إلا ظالم وإنما أعطى نعمة إستبقاء الحياة وإستمرارها لكل من خلق آمن او كفر ولكن من كفر قال عنه الله سبحانه وتعـالى : **﴿ومن كفر فأمتعه قليلا﴾** التمتع هو شيء يحبه الإنسان ويتمنى دوامه وتكراره .

وقوله تعالى : **﴿فأمتعه﴾** دليل علـى دوام متعته ، أى لـه المتعة فـى الدنيا ولكل نعمة متعة فالظالم لـه متعـة والشراب لـه متعـة والجنس لـه متعـة ... إذن التمتع فى الدنيا بأشياء متعددة ولكن الله تبارك وتعـالى وصفـه بأنـه قليـل ... لأن المتعة فى الدنيا مهما بلغت وتعددت ألوانها فهى قليلة .

وإقرأ قوله تعالى : **﴿ثم إضطره إلى عذاب النـار﴾** ومعنـى إضطـره أنـه لا إختيار له فى الآخرة ، فكان الإنسان له إختيار فى الحياة الدنيـا يـأخذ هـذا ويـترك هذا ولكن فى الآخرة ليس له إختيار ... فلا يستطيع وهو من اهل النـار مثـلا أن يختـار الجنـة بـل إن أعضـاءه االمسـخرة لخدمتـه فـى الحيـاة الدنيـا والتـى يأمرهـا بالمعصية فتفعل لا ولاية له عليها فى الآخرة وهى معنى قوله سبحانه :

﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾

[الآية ٢٤ سورة النور]

أى أن الجوارح التى كانت تطيع الكافر فى المعـاصى فـى الدنيـا لا تطيعـه يوم القيامة ، فاللسان الذى كان ينطق كلمة الكفـر والعيـاذ باللـه يـأتى يـوم القيامـة يشهد على صاحبه والقدم التى كـانت تمشـى إلـى امـاكن الخمـر واللهـو والفسـوق تشهد على صاحبها واليـد التـى كـانت تقتـل وتسرق تشـهد علـى صاحبهـا وقولـه **﴿أضطره﴾** معناه ان الإنسان يفقد إختياره فـى الآخـرة ثـم ينتهـى إلـى النـار وإلـى العـذاب الشـديد مصداقـا لقولـه تعـالى : **﴿ثم أضطره إلـى عـذاب النـار وبئـس المصير﴾** أى ان الله سبحانه وتعالى يحذر الكـافرين بـأن لهـم النـار والعـذاب فـى الآخرة ليس على إختيار منهم ولكن هم مقهورون .

دعاء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام :

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنـا تقبل منـا إنـك انـت السميع العليم﴾ .

رغم المشقة التى تحملها إبراهيم وإبنه إسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت إلا أنهما كانا سعيدين وكل ما يطلبه من الله هو أن يتقبل منهما والقبول والمقابلة والإستقبال كلها من مادة مواجهة ... أى أنهما يسألان الله فى موقف المعرض عن عمله ، أنهما لا يريدان إلاالثواب : ﴿**تقبل منا**﴾ أى أعطنا الثواب عما نعمله لأجلك وتنفيذ لأمرك .

وقوله تعالى : ﴿**إنك أنت السميع العليم**﴾ أى أنت يارب السميع العليم الذى تسمع وإننا نفعل هذا العمل إبتغاء لوجهك ولا نقصد غيرك ... ذلك أن الأعمال بالنيات وقد يعمل رجلان عملا واحد أحدهما يثاب لأنه يعمله إرضاء لله وتقربا منه والآخر لايثاب لأنه يفعله من اجل الدنيا .

والله سبحانه وتعالى عليم بالنية فإن كان العمل خالصا لله تقبله ، وإذا لم يكن خالصا لوجه لا يتقبله ورسول الله ﷺ يقول :

"إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إمرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" إذن فالعمل إن لم يكن خالصا لله فلا ثواب عليه .

﴿رَبَّنَا واجعَلنَا مُسلمِين لَكَ وَمِن ذُرِيَّتِنَا أُمَّةً مُّسلمَةً لَكَ وَأَرنَا مناسِكنَا وَتبْ عَلينَا إنَكَ أَنت الَتوَّابٌ الرَّحِيمُ﴾

هناك فرق بين أن تكلف بشئ فتعمله بحب ، وان تفعل شكلية التكليف وتخرج من عملك خروج الذى ألقى عن كاهله عبء التكليف ... فى هذه الآية الكريمة دعاء إبراهيم وابنه إسماعيل وكانا يقولان يارب أنت أمرتنا أن نرفع القواعد من البيت وقد فعلنا ما أمرتنا وليس معنى ذلك أننا إكتفينا بتكليفك لنا لأننا نريد أن نذوق حلاوة التكليف منك مرات ومرات ﴿**ربنا واجعلنا مسلمين لك**﴾ نسلم كل أمورنا إليك .

إن الإنسان لا يمكن أن ينتهى من تكليف ليطلب تكليفا غيره إلا إذا كان قد عشق حلاوة التكليف ووجد فيه إستمتاعا ... ولا يجد الإنسان إستمتاعا فى

التكليف إلا إستحضر الجزاء عليه ... كلما عمل شيئا إستحضر النعيم الذى ينتظره على هذا العمل فطلب المزيد .

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بمجرد أن فرغا من رفع القواعد من البيت قالا : **﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾** ولم يكتفيا بذلك بل أرادا إمتداد حلاوة التكليف إلى ذريتهما من بعدهما فيقولان **﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة﴾** ... ليصل أمد منهج الله فى الأرض ويستمر التكليف من ذرية إلى ذرية إلى يوم القيامة ... ثم يقولان **﴿وأرنا منا سكنا﴾** ... أى بين لنا يارب ما تريده منا بين لنا كيف نعبدك وكيف نتقرب إليك ... والمناسك هى الامور التى يريد الله سبحانه وتعالى أن نعبده بها .

وقوله : **﴿وأرنا مناسكنا﴾** ترينا أن إبراهيم يرغب فى فتح أبواب التكليف على نفسه ، لأنه لا يرى فى كل تكليف إلا تطهيرا للنفس وخير للذرية ونعيما فى الآخرة ولذلك يقول كما يروى لنا الحق **﴿وتب علينا إنك انت التواب الرحيم﴾** وتب علينا ليس ضروريا ان نفهمها على أنها توبة من المعصية .. وأن إبراهيم وإسماعيل وقعا فى المعصية فيريدان التوبة إلى الله ... وإنما لأنهما علما أن من سيأتى بعدهما سيقع فى الذنب فطلبا التوبة لذريتهما ... ومن أين علما ؟ عندما قال الله سبحانه وتعالى لإبراهيم : **﴿ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾** .

لقد طلبا من الله تبارك وتعالى التوبة والرحمة لذريتهما والله يحب التوبة من عباده وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع إلى بعيره وقد أضله فى فلاة ... لأن المعصية عندما تأخذ الإنسان من منهج الله لتعطيه نفعا عاجلا فإن حلاوة الإيمان إن كان مؤمنا ستجذبه مرة أخرى إلى الإيمان بعيدا عن المعاصى ولذلك قيل إن إنتفعت بالتوبة وندمت على ما فعلت فإن الله لايغفر لك ذنوبك فقط ولكن بدل سيئاتك حسنات ... وقلنا أن تشريع التوبة كان وقاية للمجتمع كله من اذى وشر كبير ... لأنه لو كان الذنب الواحد يجعلك خالدا فى النار ولا توبة بعده لتجبر العصاة وازدادوا شرا ... ولأصيب المجتمع كله بشرورهم ولايئس الناس من آخرتهم لأن رسول الله ﷺ يقول :

((كل بنى آدم خطاء وخير الخطائيين التوابيين)) .

لذلك فمن رحمة الله سبحانه أنه شرع لنا التوبة ليرحمنا من شراسة الأذى والمعصية .

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الاية ١٢٩ سورة البقرة]

دعاء إبراهيم عليه السلام لله سبحانه وتعالى ليتم نعمته على ذريته ويزيد نعمته على عباده ... بأن يرسل لهم رسولا يبلغهم منهج السماء حتى لا تحدث فترة وظلام فى الأرض تنتشر فيها المعصية والفساد والكفر ويعبد الناس فيها الأصنام كما حدث قبل إبراهيم .

كلمة **﴿رسولا منهم﴾** ترد على اليهود لاالذين أحزنهم أن رسول الله ﷺ من العرب ، وأن الرسالة كان يجب أن تكون فيهم ... ونحن نقول لهم أن جدنا وجدكم إبراهيم وأنتم من ذرية يعقوب بن إسحق ومحمد ﷺ ممن ذرية إسماعيل بن إبراهيم وأخ لإسحاق ... ولما حجة لما تدعونه من أن الله فضلكم واختاركم على سائر الشعوب ... وإنما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يسلب منكم النبوة لأنكم ظلمتم فى الأرض وعهد الله لا يناله الظالمون .

أراد الحق سبحانه وتعالى أن يقول لهم أن هذا النبى من نسل إبراهيم وانه ينتمى إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

قوله تعالى : **﴿يتلو عليهم أياتك﴾** ... أى آيات القرآن الكريم .

وقوله تعالى : **﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾** ... يجب أن نعرف أن هناك فرقا بين التلاوة وبين التعليم فالتلاوة هى أن تقرأ القرآن وأما التعليم فهو أن تعرف معناها وما جاءت به لتطبقه وتعرف من أين جاءت ... وإذا كان الكتاب هو القرآن الكريم فإن الحكمة هى أحاديث رسول الله ﷺ التى قال الحق سبحانه وتعالى فيها في خطابه لزوجات النبى

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾

[من الآية ٣٤ سورة الأحزاب]

وقوله تعالى : **﴿ويزكيهم﴾** أى يطهرهم ويقودهم إلى طريق الخير وتمام الإيمان وقوله جل جلاله : **﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾** .. أى العزيز الذى لا يغلب لجبروته ولا يسأله احد ... **﴿والحكيم﴾** الذى لايصدر منه الشئ إلا بحكمة بالغة .

دعاء سيدنا زكريا

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [الآية ٣٨ سورة آل عمران]

عندما قالت السيدة مريم أم المسيح عليه السلام لسيدنا زكريا عليه السلام إن الرزق من عند الله ، وانه الحق الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، هنا أيقظت فيه القضية الإيمانية فجاءت أمنيته إلى بؤرة الشعور ، فقال زكريا لنفسه : فلنطلب من ربنا أن يرزقنا ما نرجوه لأنفسنا ، وما دام قد قال هذا القول فلابد أنه قد صدق مريم فى قضيتها ، بأن هذا الرزق الذى يأتيها هو من عند الله ، ودليل آخر فى التصديق ، هو أنه لابد وقد رأى أن الألوان المتعددة من الرزق التى توجد عند مريم ليست فى بيئته ، أو ليست فى أوانها ، وكل ذلك فى المحراب .

ونحن نعرف أن المحراب كلمة يراد بها بيت العبادة . يقول الحق :

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾

[الآية ١٣ سورة سبأ]

أو "المحراب" وهو مكان الإمام فى المسجد ، أو هو حجرة يصعد إليها بسلم، كالمبلغات التى تقام فى بعض المساجد . وما دامت مريم قد أخبرت زكريا وهى فى المحراب بأن الرزق من عند الله ، وأيقظت بذلك تلك القضية الإيمانية فى بؤرة شعوره ، فماذا يكون تصرفه ؟ هنا دعا زكريا أثناء وجوده فى المحراب. ﴿رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾ إنه هنا يطلب الولد . ولكن لابد لنا أن نلاحظ ما يلى :

– هل كان طلبه للولد لما يطلبه الناس العاديون من ان يكون زينة للحياة أو "عزوة" أو ذكرا ؟ إنه يطلب الذرية الطيبة ، وذكر زكريا الذرية الطيبة تفيد معرفته أن هنالك ذرية غير طيبة . وفى قول ذكريا الذى أورده الحق :

﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [من الآية ٦ سورة مريم]

أى أن يكون دعاء لإرث النبوة وإرث المناهج وإرث القيم ، هكذا طلب زكريا الولد . لقد طلبه لمهام كبيرة ، وقول زكريا : ﴿رب هب لى﴾ تعنى أنه إستعطاء شئ بلا مقابل ، إنه يعترف . أنا ليس لى المؤهلات التى تجعل لى ولدا، لأنى كبير السن وامرأتى عاقر ، إذن فعطاؤك يارب لى هو هبة وليس حقا ، وحتى الذى يملك الإستعداد لا يكون هذا الأمر حقا له ، فلابد أن يعرف أن عطاء الله له يظل هبة ، فإياك أن تظن أن إكتمال الأسباب والشباب هى التى تعطى الذرية ، إن الحق سبحانه ينبهنا ألا نقع فى خديعة وغش أنفسنا بالأسباب .

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَمَوَاتِ والأرض يخلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يشاءُ الذكُور * أو يُزَوِجُهُم ذُكرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الآية ٤٩ و ٥٠ سورة الشورى]

إن فى ذلك لفتا واضحا وتحذيرا محددا ألا نفتتن بالأسباب ، إذن فلكل عطاء من الله هو هبة ، والأسباب لا تعطى أحدا ما يريد . إن زكريا يقول : ﴿رب هب لى من لدنك﴾ وساعة ان تقول من : ﴿لدنك﴾ فهو يعنى "هب لى من وراء أسبابك" . لماذا ؟ لأن الكل من الله .

ولكن هناك فرقا بين عطاء الله بسبب ، كأن يذهب إنسان ليتعلم العلم ويمكث عشرين عاما ليتعلم ، وهناك إنسان يفيض الله عليه بموهبة ما ، ولذلك يقول أهل الإشرافات : إنه علم لدنى ، أى من غير تعب ، وساعة أن نسمع "من لدنه" أى إنعزلت الأسباب ، كان دعاء زكريا هو ﴿رب هب لى من لدنك﴾ وكلمة "هب" توضح ما جاء فى سورة مريم من قول زكريا :

﴿قَالَ رَبِ أَنَّىٰ يَكُون لِى غُلامٌ وَكَانَت إمرَأَتِى عَاقِرٍ وَقَد بَلَغْتُ مِنَ الكِبَر عِتِيًا﴾ [من الآية ٨ سورة مريم]

إن "هب" هى التى توضح لنا هذه المعانى ، هذا كان دعاء زكريا : ﴿رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾ فهل المراد أن يسمع الله الدعاء؟ أم أن يجيب الله الدعاء ؟ إنه يضع كل أمله فى الله ، وكأنه يقول : إنك يارب من فور أن تسمعنى ستجيبنى إلى طلبى بطلاقة قدرتك . لماذا ؟ لأنك يارب تعلم

صدق نيتى فى أننى أريد الغلام لا لشئ من أمور كقرة العين ، والذكر ، والعـز ، وغيرها ، إنما أريد الولد ليكون وارثا لى فـى حمـل منهجك فـى الأرض ، وبعد ذلك يقول الحق :

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

[من الآية ٣٩ سورة آل عمران]

هل كل الملائكة إجتمعـوا أو نـادوا زكريـا ؟ لا ، لأن جـبريل عليـه السـلام الذى ناداه . ولماذا جاء القول الحق هنا بأن الملائكة هـى التـى تناديـه ؟ لقد جـاء هذا القول الحق لنفطن إلى شئ هـو ، أن الصـوت فـى الحـدث - كالإنسـان - لـه جهة يأتى منها ، أما الصوت القائم من الملأ الأعلى فلا يعـرف الإنسـان مـن أيـن يأتيه ، ، إن الإنسان يسمعه وكأنه يأتى من كل الجهات ، وكأن هناك ملكا فى كـل مكان .

والعصر الحديث الذى نعيشه قد إرتقـى فـى الصوتيـات ووصـل لدرجـة أن الإنسان أصبح قادرا على جعل المؤثر الصوتى يحيط بالإنسان من جهات متعـددة إذن فقوله الحق : **﴿فنادته الملائكة﴾** فهذا يعنى أن الصوت قد جـاء لزكريـا مـن جميع الجهات .

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مصدقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَحَصُورًا وَنَبِياً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

[من الآية ٢٩ سورة آل عمران]

لقد نادته الملائكة فى أروع لقاءاته مع ربـه ، أو حينمـا أخـذ مـا علمـه الله للأنبياء إذا حزبهم أمر قاموا إلى الصلاة . أليس طلبه مـن اللـه ؟ إذن فليقـف بين يدى الله . وليجربها كل واحد منا عندما يصعب عليك أى شئ ، وتتأزم الأمور ، وتمتنع الأسباب ، فليقم ويتوضـأ وضـوءا جديد ويبدأه بـالوضوء حتـى ولـو كـان متوضئا.

وليقـف بين يـدى اللـه ، وليقـل - إنـه أمـر يـارب عـز علـى فـى أسبابك ، وليصل بخشوع ، وانا أجزم بأن الإنسان ما إن يسلم من هـذه الصـلاة إلا ويكون الفرج قد جاء . ألم ننتلق عن رسول الله هذا السلوك البديع ؟ إنه كلمـا حزبـه أمـر قام إلى الصلاة ؟

ومعنى حزبه أمر ، أى أن أسبابه ضاقت ، لذلك يذهب إلى الصلاة لخالق الأسباب ، إنها ذهاب إلى المسبب . وبدلا من أن تلف وتدور حول نفسك أيها العبد ولك رب حكيم ؟ وقديما قلنا : إن من له أب لا يحمل هما ، والذى له رب أليس أولى بالإطمئنان ؟

إن زكريا قد دعا الله فى الأمر الذى حزبه ، وبمجرد أن دعا فى الأمر الذى حزبه ، قام إلى الصلاة ، فنادته الملائكة ، وهو قائم يصلى ، إن الملائكة لم تنتظر إلى أن ينتهى من صلاته ، ﴿**فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك**﴾ .

والبشارة هى إخبار بخير زمنه لم يأت ، فإذا كانت البشارة بخير زمنه لم يأت فلنر من الذى يخبر بالبشارة ؟ أمن يقدر على إيجاده أم من لا يقدر ؟ فإذا كان الله هو الذى يبشر ، فهو الذى يقدر ، لذلك فالمبشر به قادم لا محالة ، ﴿**إن الله يبشرك بيحيى**﴾ وفوق كل ذلك : ﴿**مصدقا بكلمة من الله**﴾ .

ولننظر إلى دقة الحق حين يقول : "بحيى مصدقا" . هذا دليل على أنه سيعيش بمنهج الله وما يعرفه من الطاعات سيسير فى هذا الطريق وهو مصدق ، وهو سيأتى بكلمة من الله ، أو هو يأتى ليصدق بكلمة من الله ، لأن سيدنا يحيى هو أول من إمن برسالة عيسى عليه السلام . وهو موصوف بالقول الحق : ﴿**وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين**﴾ . أى ممنوعا عن كل ما حرم عليه ، أو ممنوعا عن قمة الغرائز وهى الشهوة ، وهو نبى ، أى قدوة فى إتباع الرسول الذى يجيء فى عصره ، لقد دعا زكريا ، وقام ليصلى ، وتلقى البشارة بيحيى ، وهنا إرتجت الأمور على بشرية زكريا ، ويصوره الحق بقوله :

﴿**قَالَ رَبِ أَنَّىٰ يكون لي غُلَامٌ وقد بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**﴾ [الآية ٤٠ من سورة]

إن زكريا – وهو الطالب – يصيبه التعجب من الإستجابة فيتساءل . كيف يكون ذلك ؟ والحق يورد ذلك ليعلمنا أن النفس البشرية دائما تكون فى دائرات التلوين ، وليست فى دائرة التمكين . وذلك ليعطى الله لخلقه الذين لايهتدون إلى الصراط المستقيم الأسوة فى أنه إذا ما حدث له إبتلاء فعليه الرجوع إلى الله ، فيقول زكريا : ﴿**أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وإمرأتى عاقر**﴾ .

إن بلوغ الكبر ليس دليلا على أنه عاجز عن الإنجاب لأنـه قد يكون كبير العمر ، وقادر على إخصاب المرأة ، ذلك أن الإخصاب بالنسبة لبعض الرجال ليس أمرا عسيرا مهما بلغ من العمر إن لم يكن عاقرا ، ولكن المرأة هى العنصر المهم ، فإن كانت عاقرا ، فذلك قمة العجز فى الأسباب . ولو أن زكريا قال فقط: "وامرأتى عاقر" لكان أمراً غير مستحب بالنسبة لزوجته ، ولكان معنى ذلك أنه نسب لنفسه الصلاحية وهى غير القادرة .

إنه أدب النبوة وأدب النبوة أدب عال ، لذلك أوردها من أولها : ﴿**وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر**﴾ ولنر دقة القول فى : "بلغنى الكبر" ، إنه لم يقل : "بلغت الكبر" بل يقول : إن الكبر هو الذى جاءنى ولم أجئ أنا إلى الكبر : لأن بلوغ الشئ يعنى أن هناك إحساسا ورغبة فى أن تذهب إليه ، وذكر زكريا "وامراتى عاقر" هو تضخيم لطلاقة القدرة عند من يستمع للقصة ، لقد أورد كل الخوارج البشرية ، وبعد ذلك يأتى القول الفصل : ﴿**قال كذلك الله يفعل ما يشاء**﴾ إنها طلاقة القدرة التى فوق الأسباب لأنه خالق الأسباب . ويقول زكريا:

﴿**قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي ءايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًاوَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ**﴾ [من الآية ٤١ سورة آل عمران]

إن زكريا يطلب علامة على أن القول قد انتقل إلى فعل ..

﴿**قَالَ أَنَّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَ كَانَتِ امرأتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ من الكِبَرِعتِيًا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هوَ عَلَى هَيِنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَم تَكُ شَيْئًا ***﴾

[من الآية ٨ ، ٩ سورة مريم]

لقد كان القول تأكيدا لا شك فيه ، فبمجرد أن قال الرب فقد إنتهى الأمر .

فماذا يريد زكريا من بعد ذلك ؟ إنه يطلب آية ، أى علامة على أن يحى قد تم إيجاده فى رحم أمه ، وما دامت المرأة قد كبرت فهى قد إنقطع عنها الحيض ، ولابد أنه عرف الآية لأنه يعرف مسبقا أنها عاقر . لكن زكريا لم يرغب أن يفوت على نفسه لحظة من لحظات هبات الله عليه ، وما دام الحمل قد حدث فهنا كانت إستغاثة زكريا ، لا تتركنى يارب إلى أن أفهم بالعلامات الظاهرة المحسة ، لأنتى أريد ان أعيش من أول نعمتك علىّ فى إطار الشكر لك على النعمة ،

فبمجرد أن يحدث الإخصاب لابد أن أحيا فى نطاق الشكر ، إنه لم يطلب آية لأنه يشك – معاذ الله – فى قدرة الله ، ولكن لأنه لا يريد أن يفوت على نفسه لحظة النعمة من أول وجودها إلا ومعها الشكر عليها ، والذى يعطينا هذا المعنى هو القول الحق : ﴿**قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار**﴾ . لابد أن معناه أنه يرغب فى الكلام فلا يستطيع .

حين يولد للناس ولد فهم يسمونه ، فالتسمية أمر شائع فى عادات الناس . ولكن من يهمهم أمر الوليد حينما يقبلون على تسميته ، فهم يحاولون أن يتفاءلوا ، فيسموه إسما يرجون أن يتحقق فى المسمى ، فيسمونه "سعيدا" أملا فى أن يكون سعيدا ، أو يسمونه "فضلا" أو يسمونه "كريما" . إنهم يأتون بالإسم الذى يحبون أن يجدوا وليدهم على صفته ، وذلك هو الأمل منهم ، ولكن أتأتى المقادير على وفق الآمال ؟

قد يسمونه سعيدا ، ولا يكون سعيدا . ويسمونه فضلا . ويسمونه عزا ، ولا يكون عزا . ولكن ماذا يحدث حين يسمى الله سبحانه وتعالى ؟ لابد أن يختلف الموقف تماما ، فإذا قال إسمه "يحيى" دل على أنه سيعيش . وقديما قال الشاعر حينما تفاءل بتسمية إبنه يحيى :

فسميته يحيى ليحيا فلم يكن لرد قضاء الله فيه سبيل

كان الشاعر قد سمى إبنه يحيى أملا أن يحيى ، ولكن الله لم يرد ذلك ، فمات الإبن . لماذا ؟ لأن المسمى من البشر ليس هو الذى يُحْيِى ، إن المسمى إنسان قدرته عاجزة ، ولكن "المحيى" له طلاقة القدرة ، فحين يسمى من له طلاقة القدرة على إرادة أن يحيا فلابد من أن يحيا حياة متميزة ؟ وحتى لا تفهم أن الحياة التى أشار الله إليها بقوله : ﴿**إسمه يحيى**﴾ بأنها الحياة المعروفة للبشر عادة – لأن الرجل حينما يسمى إبنه "يحيى" يأمل أن يحيى الإبن متوسط الأعمار ، كما يحيا الناس ستين عاما ، أو سبعين أو أى عدد من السنوات مكتوبة له فى الأزل .

لكن الله حينما يسمى "يحيى" فإنه لا يأخذ "يحيى" على قدر ما يأخذه النـاس، بل لابد أن يعطيه أطول من حدود أعمار الناس ، ويهيء لـه الحق من خصومه ومن أعدائه من يقتله ليكون شهيدا ، وهو بالشهادة يصير حيا ، فكأنه يحيا دائما ، فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .

وهكذا أراد الله ليحيى عليه السلام أن يحيا كحياة الناس ، ويحيا حياة أطول من حياة الناس إلى أن تقوم الساعة ، وأيضا نأخذ ملحظا فى أن زكريا حينما بشر بأن الله سيهبه غلاما ويسميه يحيى ، نجده قد إستقبلها بالعجب . كيف يستقبل زكريا مسألة الرزق بالولد متعجبا مع أنه رآها فـى الرزق الذى كان يجده عند مريم ؟ "يرزق من يشاء بغير حساب" .

ولنا أن نقول : أكنت تحب أن يمر مثل هذا الأمر الخـارق للعادة والخـارق للناموس على سيدنا زكريا كأنه أمر عادى لا يندهش لـه ولا يتعجب ؟ لا ، لابد أن يندهش ويتعجب لذلك قال : ﴿**ربى أنى يكون لى غلام**﴾ . فكأن الدهشـة لفتته إلى أنه ستأتى آية عجيبة ، ولو لم تكن تلك الدهشـة لكانت المسألة رتيبة وكأنها امر عادى . إذن ، فهو يلفتنا إلى الأمر العجيب الذى خصه الله به . وأيضا جاءت المسألة على خلاف ناموس التكاثر والإنجاب والنسل :﴿**وقد بلغنى الكبر وإمرأتى عاقر**﴾ .

إن المسألة كلها تفضل وهبة من الله . فلما جاءت البشارة ، لم يقل الله له : إننى سـأهبك الغلام واسـمه يحيى من إمرأتك هذه ، وانت على حالتك هذه ، فيتشكك ويتردد ويقول : أترى الغلام الذى إسمه "يحيى" منى وانا على هذه الحالة، إمرأتى عاقر وانا قد بلغت هذا الكبر ، أو ربما ردنا الله شبابا حتى نستطيع الإنجاب ، أو تاتى إمرأة أخرى فأتزوجها وأنجب .

إن هناك فارقا بين ان يقدر على الكلام ولا يتكلم ، وبين ألا يقدر على الكلام .

وما دامت الآية هبة من الله . فالحق هو الذى قال له : سأمنعك من أن تتكلم ، فساعة أن تجد نفسك غير قادر على الكلام فاعرف انها العلامة ، وستعرف ان تتكلم مع الناس رمزا ، أى بالإشارة ، وحتى تعرف أن الآية قادمة

من الله ، وأن الله علم عن عبده أنـه لايريـد أن تمـر عليـه لحظـة مـن نعمـة اللـه بدون شكر الله عليها ، فإننا نعلم أن اللـه سينطقه .. ﴿**واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار**﴾ .

لقد أراد زكريا أن يعيش من أول لحظة مع نعمة المنعم شكرا ، وجعل كل وقته ذكرا ، فلم ينشغل بالناس ، وذكر الرب كثيرا هو ما علمه سبحانه عن زكريا عندما طلب الآية ليصحبها دائما بشكر الله عليها ، إن قولـه : ﴿**واذكر ربك كثيرا**﴾ تفيد أن زكريا قادر على الذكر وغير قادر على كلام الناس ، لذلك لا يريد الله أن يشغله بكلام الناس ، وكأن الله يريد أن يقـول لـه : مـا دمـت قـد أردت أن تعيش مع النعمة شكرا فسأجعلك غير قادر على الكلام مع الناس لكنك قـادر علـى الذكر .

والذكر مطلقا هو ذكر اللـه بآلائـه وعظمتـه وقدرتـه وصفـات الكمـال لـه ، والتسبيح هو التنزيه لله ، لأنه القادر على أن يفعل ما لا تفعله الأسـباب ولا يقدر احد أن يصنعه .

إنه يريد ان يشكر الحق الذى يرزق من يشاء بغير حساب . تلك اللفتـة .. التى جاءت من قبل من مريم لزكريا .

وزكريا كما نعلم هو الكفيل لها ، فكونها تنطق بهذه العبارة دلالـة علـى أن الله مهد لها بالرزق ، يجيئها من غير زكريا ، بأنها ستاتى بشئ من غير أسباب . وكأن التجربة قد أراد الله أن تكون من ذاتها لذاتها ، لأنها ستتعرض لشـئ يتعلق بعرض المرأة ، فلابد أن تعلم مسبقا أن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، وبدون أسباب . فإن جاءت بولد بدون سبب من ابوه فلتعلم أن الله يرزق من يشـاء بغير حساب .

فلما سمع زكريا منها ذلك قال : مادام الله يـرزق مـن غير حسـاب ويـأتى بالأشياء بلا أسباب فأنا قد بلغت من الكبر عتيا ، وامراتى عاقر ، فلمـاذا لاأطلـب من ربى أن يهبنى غلاما ؟ إذن فمقولة مريم : ﴿**إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ قد لفتت زكريا ، ونبهت إيمانا موجودا فى أعماقه وحاشية شعوره ، ولا نقول أوجدت إيمانا جديدا لزكريا بان الله يرزق من يشـاء بغير حسـاب ، ولكنهـا

اخرجت القضية الإيمانية من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، فقال زكريا : ما دام الأمر كذلك فانا أسأل الله أن يهبنى غلاما .. وقول زكريا : ﴿**هب لى من لدنك ذرية طيبة**﴾ دل على أنه وزوجته لا يملكان إكتساب الأبوة والأمومة ولذلك طلب الهبة من الله . والهبة شئ بدون مقابل .

فلما سأل الله ذلك إستجاب الله له ، وقال له سبحانه : سأهبك غلاما بدون أسباب من خصوبتك فى التلقيح أو خصوبة الزوجة فى الحمل ، وما دامت المسألة ستكون بلا أسباب وانا الخالق سأتولى الإيجاب بكن" ولمعنى سام شريف سأمنحكم شيئا آخر تقومون به أنتم معشر الآباء والامهات عادة إنه تسمية المولود، فأفاض الحق عليهم نعمة اخرى وهى تسمية المولود بعد أن وهبه لهما هنا وقفة عند الهبة بالإسم .

﴿**فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾

[الآية ٣٩ سورة آل عمران]

إذن فالعجب فى الهبة التى سيصير عليها الإنجاب فقوله : ﴿**أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر**﴾ هذا التساؤل من زكريا يهدف به إلى معرفة الهيئة أو الحالة التى سيأتى بها الإنجاب ، لأن الإنجاب يأتى على حالات متعددة . فلما أكد الله ذلك قال : ﴿**كذلك**﴾ ماذاتعنى كذلك ؟ إنها تعنى أن الإنجاب سيأتى منك ومن زوجك وانتما على حالكما ، أنت قد بلغت من الكبر عتيا ، وامرأتك عاقر . لأن العجيبة تتحقق بذلك ، أكان من المعقول أن يردهما الله شبابا حتى يساعداه أن يهبهما الولد ؟ لا . لذلك قال الحق : ﴿**كذلك الله يفعل ما يشاء**﴾ . أى كما أنتما ، وعلى حالتكما .

لقد جعل الحق الآية ألا يكلم زكريا الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة ، وقد يكون عدم الكلام فى نظر الناس مرضا ، إنه ليس كذلك ، لأن الحق يقول له : ﴿**واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار**﴾ إن الحق يجعل زكريا قادرا على التسبيح ، وغير قادر على الكلام . وهذه قدرة أخرى من طلاقة قدرة الله ، إنه اللسان إلا واحد ، غير قادر على الكلام ، ولو حاول أن يتكلم لإستطاع ، ولكن هذا اللسان نفسه أيضا يصبح قادرا فقط على التسبيح ، وذكر الله بالعشى والإبكار، ذكر الله باللسان وسيسمعه الناس ، وذلك بيان لطلاقة القدرة .

دعاء امرأت عمران

﴿إِذْ قَالَتِ امـرَأَتُ عِمـرانَ رَبِّ إِنِّـى نَـذَرتُ لَـكَ مَـا فِـى بَطْنِـي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

عندما تقرأ "إذ" فلتعلـم أنهـا ظـرف ويقـدر لهـا فـى اللغـة "اذكـر" ويقـال "إن جئتك" أى "اذكر أنى جئتك" وعندما يقول الحق : "إذ قالت امـرأة عمـران" فبعض الناس من أهل الفتح والفهم يرون أن الحق سبحانه سميع عليم وقت أن قالت امرأة عمران "رب إنى نذرت لك ما فى بطنى" ونقف عند قول امرأة عمـران "رب إنـى نذرت لك ما فى بطنى محررا" .

إننا عندما نسـمع كلمـة "محرراً" فمعناهـا أنـه غيـر مملـوك لأحـد فـإذا قلنـا "حررت العبد" يعنى ينصرف دون قيد عليه أو "حررت الكتـاب" أصلحـت مـا فيـه إن تحرير أى آمر ، هو إصلاح ما فيه من فساد أو إطلاقه من أى ارتباط أو قيد أما قولها "رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا" هو مناجاة الله ، فما الدافع إلى هذه المناجاة لله ؟

إن امرأة عمران موجودة فى بيئة ترى الناس تعتز بأولادها ، وأولاد الناس – كما نعلم – يحكمون حركة الناس ، والناس تحكم حركة أولادهم ، ويكد النـاس من آجل أن يكون الأبناء عزوة ، وقـرة عيـن ، ويتقـدم المجتمـع بذلـك التواصـل المادى ، ولم تعجب امرأة عمران بذلك ، لقد أرادت ما فى بطنها محررا مـن كـل ذلك إنها تريد ، محررا منها وهى محررة منه وهذا يعنى أنها ترغب فى أن يكون ما فى بطنها غير مرتبط بشيء أو بحب أو برعاية .

لماذا ؟ لأن الإنسان مهمـا وصـل علـى مرتبـة اليقيـن ، فـإن المسـائل التـى تتصل بالناس وبه ، تمر عليه وتشغله لذلك أرادت امرأة عمران أن يكون مـا فـى بطنها محررا من كل ذلك ، وقد يقال إن امرأة عمران إنما يتحكم بهذا النذر ، فى ذات إنسانية كذاتها ، ونرد على ذلك بما يلي :

لقد كانوا قديماً عندما ينذرون ابناً للبيت المقدس فهذا النذر يستمر ما دامت لهم الولاية عليه ، ويظل كما أرادوا إلـى أن يبلـغ سـن الرشد ، وعنـد بلـوغ سـن الرشد فإن للابن أن يختار بين أن يظل كما أراد والداه أو يحيا حياته كما يريد .

ان بلوغ سن الرشد هو اعتراف بذاتية الإنسان فى اتخاذ القرار المناسب لحياته – كانت امرأة عمران لا تريد مما فى بطنها أن يكون قرة عين ، أو أن يكون معها ، إنها تريده محرر لخدمة البيت المقدس ، وكان يستلزم ذلك فى التصور البشرى أن يكون المولود ذكرا ، لأن الذى كان يقوم بخدمة البيت هم الذكور .

نحن نعرف أن كلمة (الولد) يطلق أيضاً على البنت ، ولكن الاستعمال الشائع هو أن يطلق الناس كلمة "ولد" على الذكر لكن معنى الولد لغوياً هو المولود سواء أكان ذكر أم أنثى وعندما نسمع كلمة "نذر" فلنفهم أنها آمر أريد به الطاعة فوق تكليف من جنس ما كلف به الله .

إن الله قد فرض علينا خمس صلوات ، فإذا نذر إنسان أن يصلى عددا من الركعات فوق ذلك ، فإن الإنسان يكون قد ألزم نفسه بأمر أكثر مما ألزمه به الله، وهو من جنس ما كلف الله وهو الصلاة والله قد فرض صيام شهر رمضان فإذت ما نذر إنسان أن يصوم يومى الاثنين والخميس أو صيام شهرين فالإنسان حر ، ولكنه يختار نذر من جنس ما فرض الله من تكاليف ، وهو الصيام والله فرض زكاة قدرها باثنين ونصف بالمائة ولكن الإنسان قد ينذر فوق ذلك كمقدار عشرة بالمائة وحتى خمسين بالمائة .

إن الإنسان حر ، ولكنه يختار نذراً من جنس ما فرض الله من تكاليف ، إن النذر هو زيادة عما كلف المكلف من جنس ما كلف سبحانه وكلمة "نذرت" من ضمن معانيها هو أن امرأة عمران سيدة تقية وورعة ولم تكن مجبرة على النذر ، ولكنها فعلت ذلك وهو أمر زائد من أجل خدمة بيت الله .

والنذر كما تعلم يعبر عن عشق العبد لتكاليف الله ، فيلزم نفسه بالكثير من بعضها ودعت امرأة عمران الله من بعد ذلك بقبول ذلك النذر فقالت "فتقبل منى"

و "التقبل" فذلك يعنى الأخذ بقبول وبرضا واستجابة لهذا الدعاء جاء قول الحق :
﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ [من الآية ٣٧ سورة ال عمران]

ونلاحظ أن امرأة عمران قالت فى أول ما قالت : "رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم" ، ولم تقل "يا الله" وهذا لنعلم أن الرب هو المتولى التربية ، فساعة ينادى "ربى" فالمفهوم فيها التربية وساعة ينادى بـ"الله" فالمفهوم فيها (التكليف) إن "الله" نداء للمعبود الذى يطاع فيما يكلف به ، أما "رب" فهو المتولى التربية .... قالت امرأة عمران : "رب إن نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم" هذا هو الدعاء ، وهكذا كانت الاستجابة "فتقبلها ربها بقبول حسن" فالحسن هنا هو زيادة فى الرضا لان كلمة (قبول) تعطينا معنى الاخذ بالرضا ، وكلمة (حسن) توضح أن هناك زيادة فى الرضا ، وذلك مما يدل على أن الله قد أخذ ما قدمته امرأة عمران برضا وبشىء حسن ، وهذا دليل على أن الناس ستلمح فى تربيتها شيئاً فوق الرضا ، إنه ليس قبولاً عادياً ، إنه قبول حسن "وأنبتها نباتاً حسناً" مما يدل على أن امرأة عمران كانت تقصد حين نذرت ما فى بطنها ألا تربى ما فى بطنها إلى العمر الذى يستطيع فيه المولود أن يخدم فى بيت المقدس ولكنها نذرت ما فى بطنها من اللحظة الأولى للميلاد إنها لن تتنعم بالمولود ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : "وكلفها زكريا" وزكريا هو زوج خاله السيدة مريم وبعد دعاء امرأة عمران يجىء القول الحكيم :

﴿فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى وإن سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾.

لقد داء هذا القول منها لأنها كانت قد قالت : إنها نذرت ما فى بطنها محرر لخدمة البيت ، وقولها "محررا" تعنى أنها أرادت ذكرا لخدمة البيت ، لكن المولود جاء أنثى .

فكأنها قد قالت : ان لم أمكن من الوفاء بالنذر فلأن قدرك سبق ، لقد جاءت المولودة أنثى لكن الحق يقول بعد ذلك : ﴿**والله أعلم بما وضعت**﴾ وهذا يعنى أنها لا تريد إخبار الله ولكنها تريد أن تظهر التحسر لأن الغاية من نذرها لم تتحقق وبعد ذلك يقول الحق ﴿**وليس الذكر كالانثى**﴾ فهل من كلامها أم من كلام الله ؟

قد قالت : "إنى وضعتها أنثى" وقال الله ﴿**وليس الذكر كالأنثى**﴾ .

إن الحق يقول لها : لا تظنى أن الذكر الذى كنت تتمنينه سيصل إلى مرتبة هذه الأنثى ، ان هذه الأنثى لها شأن عظيم أو أن القول من تمام كلامها : "إنى وضعتها أنثى" ويكون قول الحق : "والله أعلم بما وضعت" وهو جملة اعتراضه ويكون تمام كلامها "وليس الذكر كالانثى" أى أنها قالت : يارب إن الذكر ليس كالأنثى إنها لا تصلح لخدمة البيت .

... وليأخذ المؤمن المعنى الذى يحبه ، وسنجد أن المعنى الأول فيه اشراق أكثر ، إنه تصور أن الحق قد قال : أنت تريدين ذكرا بمفهومك فى الوفاء بالنذر وليكون فى خدمة البيت ، ولقد وهبت لك المولود أنثى ، ولكنى سأعطى فيها أية أكبر من خدمة البيت ، وأنا اريد بالآية التى سأعطيها لهذه الآنثى مساندة عقائد ، لا مجرد خدمة رقعة تقام فيها شعائر .

إننى سأجعل من هذه الآية مواصلة لمسيرة العقائد فى الدنيا إلى أن تقوم الساعة ولأننى أنا الخالق ، سأوجد فى هذه الأنثى آية لا توجد فى غيرها ، وهى آية تثبت طلاقة قدرة الحق ، ولقد قلت من قبل إن طلاقة القدرة تختلف عن القدرة العادية ، إن القدرة تخلق بأسباب ، ولكن من أين الأسباب ؟ إن الحق هو خالق الأسباب أيضاً .

إذن فما دام الخالق للأسباب اراد خلقا بالأسباب فهذه إرادته ولذلك أعطانا الحق القدرة على رؤية طلاقة قدرته لانها عقائد إيمانية يجب أن تظل فى بؤرة الشعور الايمانى ، وعلى بال المؤمن دائماً . لقد خلق الله بعضا من الخلق بالأسباب كما خلقنا نحن وجمهرة الخلق عن طريق التناسل بين أب وأم أما خلق الحق لآدم عليه السلام فقد خلقه بلا أسباب ونحن نعلم أن الشىء الدائر بين اثنين

له قمسة عقلية ومنطقية ، فما دام هناك أب وأم ذكر وانثى فسيجئ منها تكاثر أن الحق يقول :

﴿ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ [الآية ٤٩ سورة الذاريات]

وعندما يجتمع الزوجان ، فهذه هى الصورة الكاملة وهذه الأولى فى القسمة المنطقية والتصور العقلى وإما أن ينعدم الزوجان فهذه هى الثانية فى القسمة المنطقية والتصور العقلى أو أن ينعدم الزوج الأول ويبقى الطرف الثانى ، وهذه هى الثالثة فى القسمة المنطقية والتصور العقلى أو أن ينعدم الزوج الثانى ويبقى الطرف الأول ، وهذه هى الرابعة فى القسمة المنطقية والتطور العقلى .

تلك إذن أربعة تصورات للقسمة العقلية وجميعنا جاء من اجتماع العنصرين، الرجل والمرأة أما آدم فقد خلقه الله بطلاقة القدرة ليكون السبب وكذلك تم خلق حواء من آدم وأخرج الحق من لقاء آدم وحواء نسلا وهناك أنثى وهى مريم ويأتى منها المسيح عيسى بن مريم بلا ذكر وهذه هى الآية فى العالمين ، وثبت قمة عقيدية فلا يقولن أحد ذكر وأنثى ، لأن نيه امرأة عمران فى الطاعة أن يكون المولود ذكرا وشاء قدر ربكم أن يكون اسمى من تقدير امرأة عمران فى الطاعة لذلك قال "ليس الذكر كالانثى" أى أن الذكر لن يصل إلى مرتبة هذه الانثى" .

وقالت امرأة عمران "إنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم" إن امرأة عمران قالت ما يدل على شعورها فحينما فات المولدة بأنوثتها أن تكون فى خدمة بيت الله فقد تمنت امرأة عمران أن تكون المولدة طائعة ، عابدة ، قسمتها "مريم" لان مريم فى لغتهم كما قلنا معناها "العابدة" .

... وأول ما يعترض العبودية هو الشيطان إنه هو الذى يجعل الإنسان يتمرد على العبودية إن الإنسان يريد أن يصير عابدا ، فيجيء الشيطان ليزين له المعصية وارادت امرأة عمران أن تحمى ابنتها من نزغ الشيطان لأنها عرفت بتجربتها أن المعاصى كلها تأتى من نزغ الشيطان وقد سمتها "مريم" حتى تصبح "عابدة لله" ولأن إمرأة عمران كانت تمتلك عقلية إيمانية حاضرة وتحمل المنهج التعبدى كله لذلك قالت "وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم" .

إن المستعاذ به هو الله ، والمستعاذ منه هو الشيطان ، وحينما يدخل

الشيطان مع خلق الله فى تزين المعاصى ، فهو يدخل مـع المخلـوق فـى عـراك ، ولكن الشيطان لا يستطيع أن يدخل مع ربه فى عراك ، لذلك يقـال عـن الشـيطان إنه إذا سمع ذكر الله فإنه ينحنى أى يتراجع ووصفه القرآن الكريم بأنها "الخنـاس" إن الشيطان انما ينفرد بالإنسان حين يكون الإنسـان بعيد عـن اللـه ولذلـك فـالحق يعلم الإنسان :

﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾

[الاية ٢٠٠ سورة الأعراف]

أن الشيطان يرتعد فرقا ورعشة من الاستعاذة باللـه وعندمـا يتكـرر ارتعـاد الشيطان بهذه الكلمة فانه يعرف أن هذا الإنسان العابد لن يحيد عن طاعة الله إلى المعاصى وقد علمنا رسول الله ﷺ كيف يجيء الرجل امرأته ومجيء الأهل هو مظنة لمولود قد يجـيء فيقـول العبد "اللهم جنبنـى الشـيطان وجنـب الشـيطان مـا رزقتنى" (من دعاء رسول الله ﷺ) إن من يقول هذا القول قبل أن يحدث التخلق "فلن يكون للشيطان ولاية أو قدرة على المولود الذى يأتى بإذن اللـه ولذلـك قـالت امرأة عمران "إنى أعيذها بك وذريتها مـن الشـيطان الرجيم" والذريـة قد يفهمهـا الناس على أنها النسل المتكاثر ولكن كلمة (ذرية) تطلق على الواحد وعلى الاثنين وعلى الثلاثة أو أكثر والذرية هنا بالنسـبة لمريـم عليهـا السـلام هـى عيسـى عليـه السلام وتنتهى المسألة .

دعاء سيدنا شعيب والذين آمنوا معه

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىءٍ علماً عَلَى اللَّهِ تَوكَّلنَا رَبَّنَا أفتَح بَينَنَا وَبينَ قَومِنَا بِالحَقِ وَأَنتَ خَيرُ الفَاتِحِينَ﴾ [من الآيه ٨٩ سورة الأعراف]

... جاء قولهم (على الله توكلنا) لأن خصومهم من الملأ بقوتهم وجبروتهم قالوا لهم : أنتم بين أمرين أثنين : إما أن تخرجوا من القرية ، وإما أن تعودوا فى ملتنا وأعلن المؤمنون برسولهم شعيب : أن العود فى الملة لا يكون إلا بالإختيار وقد أخترنا ألا نعود إذن فليس أمامهم إلا الإخراج بالإجبار ، لذلك توكل المؤمنون على الله ليتولاهم ، ويمنع عنهم تسلط هؤلاء الكافرين .

﴿على الله توكلنا ربنا أفتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾

[من الآيه ٨٩ سورة الإعراف]

وساعة نسمع كلمه "فتح" أو"فتَح" أو"فتّح" نفهم أن هناك شيئاً مغلقاً أو مشكلاً، فإن كان من المحسات يكون الشيء مغلقاً والفتح يكون بإزالة الأغلاق وهى الأقفال وإن كان فى المعنويات فيكون الفتح هو إزالة الإشكال والفتح الحسن له نظير فى القرأن ، وحين نقرأ سورة يوسف نجد قول الحق :

﴿ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يأبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ [من الآيه ٦٥ سورة يوسف]

وكلمة (ولما فتحوا متاعهم) تعنى أن المتاع الذى كان معهم مغلقاً وإحتاج إلى فتح حسى ليجدوا بضاعاتهم كما هى وأيضاً يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَسِيقَ الّذِينَ أتّقَواْ رَبّهُم إلَى الجَنَّةِ زُمَراً حتّى إذَا جَاءُوهَا وَفُتّحت أبوَابُهَا﴾ [من الأية ٧٣ سورة الزمر]

وما دامَ هناك أبواب تفتح فهذا فتح حسى ... وقد يكون الفتح فتح علم مثلما

نقول : ربنا أفتح علينا بالإيمان والعلم ، ويقول الحق :

﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم﴾

[من الأية ٧٦ سورة البقرة]

فما دام ربنا قد علمهم من الكتاب الكثير فهذا فتح علمي ويكون الفتح بسوق الخير والإمداد به والمثال على ذلك قوله الحق :

﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها﴾ [من الأية ٢ سورة فاطر]

وكذلك قوله سبحانه : **﴿ولو أن أهل القرى ءامنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾** والبركات من السماء كالمطر وهو يأتى من أعلى ، وهو سبب فيما يأتى من الأسفل أى من الأرض .

والفتح أيضاً بمعنى إزالة إشكال فى قضية بين خصمين ، ففى اليمين حتى الأن يسمون القاضى الذى يحكم فى قضايا الناس "الفاتح" لأنه يذيل الإشكالات بين الناس وقد يكون "الفتح" بمعنى "النصر" ، مثل قول الحق :

﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ [من الأية ٨٩ سورة البقرة]

لقد كانوا ينتظرون النبى ﷺ لينتصروا به على الذين كفروا و أيضاً الأية الكريمة:

﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾

[من الآيه ٨٩ سورة الأعراف]

وهذا القول هو دعاء للحق : أحكم يا رب بيننا وبين قومنا بالحق بنصر الإيمان وهزيمة الكفر ، وأنت خير الفاتحين .

دعاء سحرة فرعون بعد إيمانهم

﴿رَبَّنَا أَفرِغ عَلَينَا صَبراً وَتَوفَّنَا مُسلِمِينَ﴾ [من الآيه ١٢٦ سورة الأعراف]

بعد أن أعلن السحرة الإيمان بالله رب العالمين رب موسى وهارون كان لابد أن يغضب فرعون فيأتى القرآن بما جاء على لسانه :

﴿قال فرعون ءامنتم به قبل أن ءاذن لكم إن هذا لمكرمكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون﴾ [الأيه ١٢٣ سورة الأعراف]

وكأن فرعون ما زال يحاول تأكيد سلطانه ، ونعلم أن بنى إسرائيل أختلطوا بالناس فى مصر ومنهم من تعلم السحر ولذلك أتهم فرعون السحرة بأنهم قد أتفقوا مع موسى على هذه المسألة .

لقد كان فرعون فى مأزق ويريد أن يخرج منه ، لأن الناس جميعاً قد شاهدوا المسألة وهو لا يريدهم أن يتشككوا فى ألوهيته فينهدم الصرح الذى أقامه على الأكاذيب ، لذلك قال للسحرة : إن المكر مكرتموه فى المدينة ... آى إنكم أتفقتم مع موسى وسيأتى ويقول : إتهاماً لموسى :

﴿إنه لكبيركم الذى علمكم السحر﴾ [فى الأيه ٧١ سوره طه]

ونتيجه لهذا المكر المتوهم بين بنى إسرائيل وموسى يتوعدهم فرعون :

﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين﴾

[الأيه ١٢٤ سورة الأعراف]

والوعيد كما نراه قاس وفظيع فتقطيع الأيدى والأرجل ثم الصلب كلها أمور تخيف ، فماذا يكون الرد ممن يتلقون هذا الوعيد ، وقد خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ؛ إنهم يقولون :

﴿قالوا إنا إلى ربنا منقلبون﴾ [الأيه ١٢٥ سورة الأعراف]

إنك قد عجلت لنا الخير لأننا سنكون فى جوار ربنا فأنت بطيشك وحماقتك قد أسديت لنا معروفاً وخيراً من حيث لا تدرى ويزيدون فى تقريع فرعون بما يجئ فى القرآن على ألسنتهم :

﴿وما تنقم منا إلا أنء امنا بأيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾ [الآيه ١٢٦ سورة الأعراف]

ما الذى تكرهه منا لأن "تنقم" تعنى تكره وقولهم لفرعون أليس الذى تكرهه من أنا آمنا بأيات ربنا لما جاءتنا ؛ وهل الإيمان بآيات الإله حيث تجئ مما يُكره؟!!

ويسمون ذلك فى اللغه تأكيد المدح بما يشبه الذم ، كأن يقول إنسان : ماذا تكره فى ؛ أصدقى ، أمانتى ؟ أجودى ! أعلمى ؟

كأنه يعدد أشياء يعرف كل الناس واقعاً أنه لا تكره ، لكن الخطأ فى مقاييس من يكره الصواب ، فهى أمور لا تستحق أن تكره أو تعاب أو تذم لقد تيقنوا أن لقاء الله على الإيمان هو الخير وكلهم يفضل جوار الله على جوار فرعون وهذا الذى يعتبره فرعون عقاباً إنما يثبت خيبته حتى فى توقع العقوبة ، لأنه لو لم يهددهم بهذه الميتة فهم سيموتون ليرجعوا إلى الله ؛ وهذا أمر مقطوع به ، وكل مخلوق مصيره أن ينقلب إلى الله ، وكأنهم أبطلوا وعيد فرعون حيث قال لهم :

﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين﴾

[الآيه ١٢٤ سورة الأعراف]

ثم يتجهون إلى ربهم وخالقهم فيقولون :

﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفقاً مسلمين﴾ .

و "الإفراغ" أن ينصب شيء على شيء ليغمره ، وكأنهم يقولون : أعطنا يارب كل الصبر ، وهم يحتاجون إلى الصبر لأن فرعون قد توعدهم بأن يقطع أيديهم وأرجلهم ولذلك قال بعض العارفين بالله : عجبى لسحرة فرعون كانوا أول النهار كفرة سحرة وكانوا آخر النهار شهداء بررة .

دعاء الحواريون

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾

[الآية ٥٣ سورة ال عمران]

والحواريون هم قوم لهم إشرقات انسجام النفس مع الإيمان ، أوهم قوم بيض المعانى أى أن معانيهم بيضاء ومشرقة أيضاً هم جماعة أشرقت فى وجوههم سيماء الإيمان ، فكأنها مشرقة بالنور ونور الوجه لا يقصد به البشرة البيضاء ولكن نور الوجه فى المؤمن يكون بإشراقه الايمان فى النفس .

فحتى لو كان المؤمن أسود اللون فإن له سمة على وجهه كيف ولماذا ؟ لأن الانسان مكون من أجهزة ومكون من ذرات ، وكل جهاز فى الإنسان له مطلوب محدد ، وساعة أن تتجه كل الأجهزة إلى ما أراده الله ، فإن الذى يحدث للإنسان هو انسجام كل أجهزته ، وما دامت الأجهزة منسجمة فإن النفس تكون مرتاحة ، ولكن عندما تتضارب مطلوبات الاجهزة ، تكون السحنة مكفهرة .

.... عندما قال عيسى عليه السلام " من أنصارى إلى الله" سمع الاستجابة الحواريون يقولون "نحن أنصار الله" كأن ذلك يعنى أن كل إنسان منهم يريد نصرة الله فينضم إلى الله ناصراً للمنهج ، وهذا يتطلب أن يعرف كل منهم المنهج ونحن نعرف مقومات النصرة لله . إنه الإيمان وما الإيمان ؟ إنه اطمئنان القلب إلى قضية ما ، هذا هو الإيمان فى عمومه فلو لم أكن مؤمناً بأن الطريق الذى اسير فيه موصل إلى غاية مطلوبة لى لما سرت فيه ، ولكن إذا أطلق الإيمان بالمعنى الخاص ، فهو اطمئنان القلب إلى قمة القضايا وهى الإيمان بالله ، ولذلك فأسلحة النصر إلى الله هى : إسلام كل جوارح الإنسان إلى الله . ولذلك قال الحواريون : "نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون" .

لماذا يشهد الرسول لهم ؟ لأن المفروض فى الرسول أن يبلغ القوم عن الله، فيشهد عليهم كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيكُم وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُواْ بِاللَّهِ هُوَ مَولَاكُم فَنِعمَ المَولَى وَنِعمَ النَّصِيرُ﴾ [من الآية ٧٨ سورة الحج]

ولنا أن نلحظ أن الحق أورد على لسانهم - الحواريين - الإيمان أولاً ؛ لأنه أمر غيبي عقدى فى القلب ، جاء من بعد ذلك على لسان الحواريين طلب الشهادة بالإسلام ؛ لأن الإسلام خضوع لمطلوبات الإيمان وأحكامه . إن قولهم : ﴿**واشهد بأنا مسلمون**﴾ هو أيضاً طلب منهم يسألونه لعيسى ابن مريم أن يبلغهم كل مطلوبات الإسلام قل لنا أفعلوا كذا ولا تفعلوا كذا إنهم قالوا : "آمنا" وما داموا قد أعلنوا الإيمان بالله ، فهم آمنوا بمن بلغهم عن الله ، والمطلوب من عيسى ابن مريم أن يشهد بأنهم مسلمون ، ولا تتم الشهادة إلا بعد أن يبلغهم كل الاحكام وقد بلغهم ذلك وعملوا به وقالوا من بعد ذلك :

﴿**رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾ .

فهل يكون إعلانهم للإيمان ، يعنى إيمانهم بتشريعات رسالة سابقة لا ، إن الإيمان هنا مقصود به ما جاء به عيسى من عند الله ؛ لأن كل رسول جاء بشىء من الله ، فوراء مجىء رسول جديد أمر يريد الله إبلاغه للناس ، ونحن نعلم أن العقائد لا تغيير فيها ؛ وكذلك الأخبار ؛ وكذلك القصص ، ولكن الأحكام هى التى تتغير فكأن إعلان الحواريين هو إعلان بالإيمان بما جاء سابقاً على عيسى ابن مريم من عقائد وبما جاء به عيسى ابن مريم من أحكام وتشريعات .

وقولهم : ﴿**ربنا آمنا بما أنزلت**﴾ كلمة "بما أنزلت" تدل على منهج منزل من أعلى إلى أدنى ، ونحن حين نأخذ التشريع فنحن نأخذه من أعلى . ولذلك قلنا سابقاً : إن الله حينما ينادى من آمن به ليتبع مناهج الإيمان يقول : "تعالوا" أى ارتفعوا إلى مستوى التلقى من الإله وخذوا منه المنهج ولا تظلوا فى حضيض الأرض ، أى . لا تتبعوا أهواء بعضكم وآراء بعضكم أو تشريع بعضكم ، وما دام المؤمن يريد العلو فى الإيمان ، فليذهب بسلوكه فى الأرض إلى منهج السماء.

وقولهم : ﴿**ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول**﴾ . إن المتبع عادة يقتنع بمن اتبعه أولاً ، حتى يكون الاتباع صادراً من قيم النفس لا من الإرغام قهراً أو قسراً ، فنحن قد نجد إنساناً يرغم إنساناً آخر على السير معه ، وهناك لا يقال عن المُرغَم : إنه "أتبع" إنما الذى يتبع ، أى الذى يسير فى نفس طريق صاحبه يكون

ذلك بمحض إرادته ومحض اختياره . فلو سار شخص فى طريق شخص آخر بالقهر أو القسر لكان ذلك الاتباع بالقالب ، لا بالقلب . ولذلك فمن الممكن لمتجبر أن يمسك سوطاً ويقهر مستضعفاً على السير معه ، وفى ذلك إخضاع لقالب المستضعف ، لكنه لم يخضع قلبه ، فالإكراه يخضع القالب لكنه لا يخضع القلب .

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ(٤)﴾ [سورة الشعراء]

إن الحق يخبر رسوله أن أحدا من العباد . لا يستعصى على خالقه ، وأنه سبحانه القادر على الإحياء والامانة ، ولو اراد الله أن ينزل آية تخضع أعناق كل العباد لَفَعَلَ ، لكن الحق لا يريد أعناق الناس ، ولكنه يطلب القلوب التى تأتى طواعية وبالاختيار ، وأن يأتى العبد إلى الإيمان وهو قادر ألا يجىء . هذه هى العظمة الإيمانية . وقال الحواريون بعد إعلانهم الإيمان بما جاء به عيسي : **﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾** أنه الطلب الإيمانى العالى الواعى ، الفاهم . إنهم يحملون أمانة التبليغ عن الرسول ، ويشهدون كما يشهد الرسل لأممهم ، ويطلبون أن يكتبهم الله مع الذين يشهدون أن الرسل يبلغون رسالات الله وأنهم يحملونها من بعدهم ؛ ولذلك قلنا عن أمة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام : إنها الأمة التى حملها الله مهمة وصول بلاغ الرسالة المحمدية إلى أن تقوم الساعة . لماذا ؟ هاهو ذا القول الحق :

﴿وَجَاهِدُواْ فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُم إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُم وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوةَ وَاعْتَصِمُواْ بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُم فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

[من الآية ٧٨ سورة الحج]

ولذلك فلن يأتى أنبياء أو رسل من بعد أمة محمد ﷺ ، لقد ائتمن الله أمة محمد ؛ بعد محمد ﷺ ؛ لذلك فلا نبوة من بعد رسول الله ﷺ .

دعاء أصحاب الرسول ﷺ فى غزوة أحُد

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [الآية ١٧٣ سورة آل عمران]

ويمكن أن نفهم قول الحق : **﴿الذين قال لهم الناس أن الناس قد جمعوا لكم﴾** أن هناك بعضا من الكفار أشاعوا أن أبا سفيان وصحبه قد حشدوا حشودهم، فكلمة "جمعوا" تعطى إيحاء بأنهم جاءوا بمقاتلين آخرين ، أو أن فلولهم قد تجمعت ، وسواء هذا أو ذاك فهم عندما فروا فلولا ، لأن القوم المنهزمين لا يسيروا سيرا منتظما يجمعهم ، بل يسير كل واحد منهم حسب سرعته ، ويصح ان يتجمعوا ثانية ، أو جاءوا بناس آخرين ، ولنا أن نلحظ ان الأسلوب يحتمل كل ذلك .

﴿والذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ ومثل هذا القول قد يفت فى عضد المؤمنين ، لكن التمحيص الإيمانى قد صقل معسكر الإيمان فلم يهتموا بهذا الكلام ، وهكذا أثمر الدرس الأول ، لقد تعلموا ان المخالفة عن امر الله الممثل فى أمر رسول الله ﷺ مجرد المخالفة تجعل الضعف يسرى فى النفس ، لكن التثبت والتمسك بأوامر رسول الله ﷺ يعزز الإحساس بالقوة ، لذلك لم يأهبوا لهذا التهديد بل قالوا : إن العدد هذا ليس فى بالنا ، لأننا نعتمد على الله وحسن الإيمان ، إنهم قالوا : **﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾** فلم يهتموا بالعدد وفهموا ان الإيمان يقتضى أن يقاتلوا الكافرين حتى يعذبهم الله بأيديهم ، وفى هذا درس لكل محارب ، فعندما تحارب ، فأنت إما أن تكون منصورا بإيمانك بالله وإما أن تكون على عكس ذلك :

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [من الآية ١٧ سورة الأنفال]

لقد فطنوا إلى أنفسهم ، وتغير الترتيب الإيمانى فى أعماقهم ، ونلمس ذلك فى أن بعضاً من الناس جاءوا يصدونهم ويخذلونهم ، فلم يستطيعوا بل زادهم هذا القول إيمانا **﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾** ، لقد فطنوا إلى أن قوة الله هى التى تنصرهم والله حسبهم وكافيهم عن أى عدد من الأعداد وهو نعم الوكيل ،

ومعنى "الوكيل" أننى عندما أعجز عن أمر أوَ كِّلُ أحدا فهو وكيل عنى ، وعندمت نوكل الله فيما عجزنا عنه فهو نعم الوكيل ، لماذا ؟ وتأتيه الإجابة : ﴿**فانقلبوا بنعمة من الله**﴾ ، ولقد نصروا بالرعب الذى أنزله الله فى قلوب أعدائهم ولم يشتبكوا مع الكفار ، فصدق قول الله :

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ﴾

[من الآية ١٢ سورة الأنفال]

ويأتى الحق من بعد ذلك بما يصدق القضية :

﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّه وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ اللهِ وَاللهِ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)﴾ .

وهذه القضية يجب أن يستشعرها كل مؤمن يتعرض لتمحيص الحق له ، وعلى كل مسلم أن يتذكر تلك التجربة ، تجربة أحد ، فليلة واحدة كانت هى الفارق بين يوم معركة أحدويوم الخروج لملاحقة الكفار فى حمراء الأسد ، ليلة واحدة كانت فى حضانة الله وفى ذكر لتجربة التمحيص التى مر بها المؤمنون إنها قد فعلت العجب ، لأنهم حينما طاردوا الكفار ، لم يأبهوا لمحاولات الحرب النفسية التى شنها عليهم الأعداء ، بل زادهم ذلك إيمانا وقالوا : ﴿**حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ .

إذن فقد تجردوا من نفوسهم ومن حولهم ومن قوتهم ومن عددهم ومن أى شئ إلا أن يقولوا : الله كافينا وهو نعم الوكيل لمن عجز عن إدراك بغيته . لقد عرفوا الأمر المهم ، وهو أن يكون كل منهم دائما فى حضانة ربه ، وقد أخذ صحابة رسول الله هذه الجرعة الإيمانية واستنبطوا منها الكثير فى حل قضاياهم.

وقول الله سبحانه : ﴿**حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ يذكرنا بالإمام جعفر الصادق ابن سيدى محمد الباقر بن سيدى على زين العابدين وكان من أفقه الناس بالقرآن ، وكان من أعلمهم فى استنباط أسرار الله فى القرآن ، إنه كان يجد فى قول الحق : ﴿**حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ إستنباطا رائعا ، فهو يتعجب لأى إنسان أدركه الخوف من أى شئ يخاف ، والإنسان لا يخاف إلا أمرا ينقضُ عليه رتابة

راحته ، ويقلقه ويهدده فى سلامة وامنه واطمئنانه ، ويكون لهذا الخوف مصدر معلوم ، فإذا ما تعرض المؤمن لمثل هذا الخوف فعليه ان يتذكر قول الحق : ﴿**حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ لأنها قضية نفعت الجيش كله فى معركته مع الكفار ، فحين يأخذ الفرد هذه الجرعة فهو يستعد رباطة الجأش . واشتداد القلب فلا يفر عند الفزع .

وينبهنا سيدنا جعفر الصادق إلى هذه القضية لنفرغ إليها عند كل ما يخيفنا فيقول : عجنت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله : ﴿**حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ إنه بنظرته الإيمانية يتعجب لإنسان أدركه الخوف ثم يفزع إلى هذا القول الكريم ﴿**حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ ثم يستنبط بإشراقاته سر هذا فيقول : لأنى سمعت الله يعقبها بقوله : ﴿**فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء**﴾ ، فالمؤمن حين يقرأ كلام الله إنما يستحضر أنه يسمع الله يتكلم أنه يقول : فإنى سمعت الله يعقبها يقول : ﴿**فانقلبوا بنعمة الله وفضل لم يمسسهم سوء**﴾ ولذلك فالحق يقول:

﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ**﴾

[من الآية ٢٠٤ سورة الأعراف]

فأنت حين تستمع إلى القرآن فالله هو الذى يتكلم ، ومن العيب أن يتكلم ربك فى أذنك ثم تشتغل عنه وهو ربك ، إذن فعلاج الخوف هو أن تقول من قلبك: "حسبنا الله ونعم الوكيل" وان تقولها بحقّها كفاك الله شر ذلك الخوف ، لأن الله يقول بعد " وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل" : ﴿**فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء**﴾ أنظر إلى النعمةوالفضل ، إنهما من الله ، إن ذلك هو قمة العطاء ورأسه وسنامه ، فإن قدرته فى أخريات الامور فقد أخطأت التقدير ﴿**فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء**﴾ ونتيجة لتلك التجربة النافعة هى أن ﴿**اتبعوا رضوان من الله**﴾ وقد نجحت التجربة مع المؤمنين .

ويقول الإمام جعفر الصادق ليكمل العلاج لجوانب النفس البشرية ، ويصف الدواء . فالنفس البشرية يفهما ويفزعها ويجعلها مضطربة أنها تخاف شراً يقع عليها ، وعلاج هذا : ﴿**حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ .

الدخول على باب الله

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

[الآية ١٦ سورة آل عمران]

إن قولهم : ﴿**ربنا إننا آمنا**﴾ هو أول مرتبة للدخول على باب الله ، فكأن الإيمان بالله يتطلب رعاية من الذى تلقى التكليف لحركة نفسه ، لأن الإيمان له حق يقتضى ذلك ، كأن المؤمن يقول أنا ببشريتى لا أستطيع أن أوفى بحق الإيمان بك ، فيارب إغفر لى فيه من غفلة ، أو من زلة ، أو من كبر أو من نزوة نفس .

وهذا الدعاء دليل على أنه عرف مطلوب الإيمان كما أوضحه لنا رسول الله ﷺ فى بيانه لمعنى الإحسان حين قال :

"الإحسان أن تعبد الله كانك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"

كأنك تستحضر الله فى كل عمل ، لأنه يراك .

وهل يتاتى لواحد من البشر أن يجترئ على محارم من يراه بعينه ؟ حينئذ يستحضر المؤمن ما جاء إلينا من مأثور القول ، فكأنه سبحانه وتعالى يوجه إلينا الحديث : ياعبادى إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم ، فالخلل فى إيمانكم وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟

وكأن الحق سبحانه يقول للعبد : هل أنا أقل من عبيدى ؟ أتقدر أن تسئ إلى أحد وهو يراك ؟ إذن فكيف تجرؤ على الإساءة لخالقك ؟

إن قول المؤمنيين : ﴿**إننا آمنا فاغفر لنا**﴾ دليل على انهم علموا أن الإيمان مطلوباته صعبة ﴿**الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا**﴾ .

فالذى على ماذا رتبوا غفران الذنب ؟ لقد رتبوا طلب غفران الذنب على الإيمان لماذا ؟ لأنه ما دام الحق سبحانه وتعالى قد شرع التوبة ، وشرع المغفرة للذنب ، فهذا معناه أنه سبحانه قد علم أزلا أن عباده قد تخونهم نفوسهم فينحرفون عن منهج الله .

ويختتم الحق سبحانه الآية بقوله على ألسنة المؤمنين : ﴿**وقنا عذاب النار**﴾ لأنه ساعة ان أعلم أن الحق سبحانه وتعالى ضمن لى بواسع مغفرته أن يستر على الذنب ، فإن العبد قد يخجل من إرتكاب الذنب ، أو يسرع بالإستغفار .

ولماذا لا يكون قوله ﴿**فاغفر لنا ذنوبنا**﴾ بمعنى أسترها يارب عنا فلا تأتى لنا أبدا ، وإن جاءت فهى محل الإستغفار والتوبة فإذا أذنبت ذنبا ، واستغفرت ربى ، وعلمت ان ربى قد أذن بالمغفرة لأنه قال :

﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ [من الآية ١٠ من سورة نوح]

فإن الوغل يمتنع ، والخوف يذهب عنى ، وأقبل على الله بمحبة على تكاليفه واحمل نفسى على تطبيق منهج الله كله ولذلك حينما شرع الحق سبحانه وتعالى للخلق التوبة كان ذلك رحمة أخرى وهذه الرحمة الأخرى تتجلى فى المقابل بل والنقيض ... هب ان الله لم يشرع التوبة وأذنب واحد ذنبا ، وبمجرد ان أذنب ذنبا خرج من رحمة الله ، فماذا يصيب المجتمع منه ؟ إن كل الشرور تصيب المجتمع من هذا الإنسان لأنه فقد الأمل فى نفسه ، أما حينما يفتح الله له باب التوبة فإن ارتكب العبد ذنبا ساهيا عن دينه ، فإنه يرجع إلى ربه ... ولك وواقعية الدين الإسلامى ، فليس الدين مجرد كلام يقال ، ولكنه دين يقدر الواقع البشرى فإنه سبحانه يعلم أن العباد سيرتكبون الذنوب فيرسم لهم أيضا طريق الأستغفار وإذا ما إرتكب العباد ذنوبا فإن الحق يطلب منهم أن يتوبوا عنها وان يستغفروا الله فإذا ما لذعتهم التوبة حينما يتذكرون الذنب فإن هذه اللذعة كلما لذعتهم أعطاهم الله حسنة .

كأن غفران الذنب شئ ، والوقاية من النار شئ آخر كيف ؟ لأنه ساعة أن يعلم العبد أن الحق سبحانه وتعالى ضمن للعبد مغفرته ، وهو الخالق المربى ، فإن العبد يذهب إلى الله مستغفرا لأنفسهم لماذا ؟

لأن الإستغفار من الذنب تكليف من الله كما قلنا : إن الإنسان قد ينسى بعضا من التكاليف ، لذلك فمن الممكن أن يسهو عن الإستغفار ولذلك يقول الحق على ألسنة عباده المؤمنين **﴿وقنا عذاب النار﴾** .

ومعنى التقوى ان تجعل بينك وبين النار وقاية ، أو تجعل بينك وبين غضب ربك وقاية ، فإذا ما اخذت النعم من الله لتصرفها فى منهج الله تكون حسنة لك ، وقلنا : إن **﴿إتقوا النار﴾** ملتقيتان لآن معنى "اتقوا النار" كى لا تصيبكم بأذى "واتقوا الله" تعنى ان نضع بيننا وبين غضب الله وقاية ؟ لأن غضب الله سيأتى .

﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾

وهذه كل صفات الذين اتقوا الله ، وأعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار والأزواج المطهرة ورضوان الله أكبر وهم صابرون وصادقون وقانتون ومنفقون فى سبيل الله ومستغفرون بالأسحار .

دعاء الراسخون فى العلم

﴿رَبَّنَا لاتُزِغ قُلُوبَنَا بعد إذ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنكَ رَحمَةً إنَّكَ أنتَ الوَهَّابُ﴾ [الآية ٨ سورة آل عمران]

الراسخون فى العلم يقولون إن كل محكم وكل متشابه هو من عند الله ، والمحكم نعمل به ، والمتشابه نؤمن به ، فهذه هى الهداية ، ثم يكون الدعاء بالثبات على هذه الهداية ، والمعنى : يارب ثبتنا على عبادتك ولا تجعل قلوبنا تميل أو تزيغ وهذا يدلنا على أن القلوب تتحول وتتغير لذلك يأتى القول الفصل بالدعاء على الثبات الإيمانى .

... إنهم يطلبون رحمة هبة لا رحمة حق ، فليس هناك مخلوق له حق على الله إلا ما وهبه الله له .

والراسخون فى العلم يطلبون من الله الرحمة من الوقوع فى الهوى بعد أن هداهم الله إلى هذا الحكم السليم بأن المشابه والمحكم كل من عند الله ، ويعلموننا كيف يكون الطريق إلى الهداية وطلب رحمة الهبة والراسخ فى العلم ما دام قد علم شيئا فهو يريد ان يشيعه فى الناس ، لذلك يقول لنا إياكم أن تظنوا ان المسألة مسألة فهم لنص وتنتهى ، إن المسألة يترتب عليها أمر آخر ، هذا الامر الآخر لا يوجد فى الدنيا فقط فهناك آخرة ، فالدنيا مقدور عليها لأنها محدودة الأمد ومنتهية، ولكن هناك الآخرة التى تأتى بعد الدنيا حيث الخلود فيقول الحق على لسان الراسخين فى العلم :

﴿رَبَّنَا إنَّكَ جَامعُ النَّاس لِيَومٍ لاَّ رَيبَ فيهِ إنَّ اللّه لا يُخلفُ المِيعَادَ﴾ .

وقولهم ﴿ربنا﴾ نفهم منه انه الحق المتولى التربية ، ومعنى التربية هو إيصال من تتم تربيته إلى الكمال المطلوب له ، فهناك رب يربى ، وهناك عبد تتم تربيته ، والرب يعطى الإنسان ما يؤهله إلى الكمال المطلوب له .

والمؤمنون يرجون الله قائلين : يارب من تمام تربيتك لنا ان تحمينا من عذاب الآخرة ، فإذا ما عشنا الدنيا وانتهت فنحن نعلم أنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، وما دمت ربا ، وما دمت إلهاً فإنك لا تخلف الميعاد ، فالذى يخلف الميعاد لا يكون إلهاً ، لأن الإله ساعة الوعد يعلم بتمام قدرته وكمال علمه أنه قادر على الإنفاذ ، إنما الذى ليس لديه قدرة على الإنفاذ لا يستطيع أن يعد إلا مشمولا بشيئ يستند إليه ، كقولنا نحن العباد : "إن شاء الله" لماذا ؟ لأن الواحد منا لا يملك أن يفى بما وعد .

بين يدى الحمد لله

الحق سبحانه وتعالى دائم العطاء لخلقه ، والخلق يأخذون دائما من نعم الله، فكأن العبودية لله تعطيك ولا تأخذ منك ، وهذا يستوجب الحمد .

والله سبحانه وتعالى فى عطائه يحب ان يطلب منه الإنسان ، وان يدعوه وان يستعين به ، وهذا يوجب الحمد لأنه يقينا الذل فى الدنيا . فأنت إن طلبت شيئا من صاحب نفوذ ، فلابد ان يحدد لك موعدا أو وقت الحديث ومدة المقابلة وقد يضيق بك فيقف لينهى اللقاء ولكن الله سبحانه وتعالى بابه مفتوحا دائما ... فأنت بين يديه عندما تريد وترفع يديك إلى السماء وتدعو وقتما تحب وتسأل الله ما تشاء فيعطيك ما تريده إن كان خير لك ...

ويمنع عنك ما تريده إن كان شرا لك .

والله سبحانه وتعالى يطلب منك أن تدعوه وأن تسأله فيقول :

﴿وَقَالَ رَبُّكم آدْعُونِى أَسْتجبُ لَكُمُ إنّ الّذينَ يَسْتكبِرُونَ عن عبادَتِى سَيدخُلُونَ جَهَنّمَ داخِرِينَ﴾ [الآية ٦٠ سورة غافر]

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿وَإذَا سَألَكَ عِبَادى عَنّى فَإنّى قَرِيبٌ أجِيبُ دُعْوَةَ الدّاعِ إذَا دَعَانِ فَلْيَستَجِيبُواْ لِي وَ لْيُؤمِنُوا بِي لَعَلّهُم يَرشُدُونَ﴾ [الآية ١٨٦ سورة البقرة]

والله سبحانه وتعالى يعرف مافى نفسك ، ولذلك فإنه يعطيك دون أن تسأل.

واقرأ الحديث القدسى :

يقول رب العزة :

((من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين)) رواه البخارى والبزار والبيهقى عن ابن عمر .

والله سبحانه وتعالى عطاؤه لا ينفذ وخزائنه لا تفرغ ، فكلما سألته جلا جلاله كان لديه المزيد ، ومهما سألته فإنه لا شئ عزيز على الله سبحانه وتعالى، وإذا اراد أن يحققه لك وأقرأ قول الشاعر :

حسب نفسى عزا بأننى عبد   يحتفى بى بلا مواعيد رب

هو فى قدسه الأعز ولكن   أنا ألقى متى وأين أحب

إذن عطاء اللــه سبحانه وتعالى يستوجب الحمد ومنعه العطاء يستوجب الحمد .

ووجود الله سبحانه وتعالى يستوجب الحمد ... فالله يستحق الحمد لذاته ، ولولا عدل الله سبحانه وتعالى لبغى الناس في الأرض وظلموا ، ولكن يد الله تبارك وتعالى حين تبطش بالظالم تجعله عبرة ... فيخاف الناس الظلم ... وكل من أفلت من عقاب الدنيا على معاصيه وظلمه واستبداده سيلقى الله في الآخرة ليوفيه حسابه ... وهذا يوجب الحمد ... وأن يعرف المظلوم أنه سينال جزاءه فتهدأ نفسه ويطمئن قلبه أن هناك يوما سيرى فيه ظالمه وهو يعذب في النار ... فلا تصيبه الحسرة ، ويخف إحساسه بمرارة الظلم حين يعرف أن الله قائم على كونه لن يفلت من عدله أحد .

وعندما نقول "الحمد لله" فنحن نعبر عن إنفعالات متعددة ... هي في مجموعها تحمل العبودية والحب والثناء والشكر والعرفان ، وكثير من الإنفعالات التى تملأ النفس عندما نقول "الحمد لله" كلها تحمل الثناء العاجز عن الشكر لكمال الله وعطائه ... هذه الإنفعالات تأتى من النفس وتستقر ثم تفيض من الجوارح على الكون كله .

فالحمد لله ليس ألفاظا تردد بالسان ولكنها تمر أولا على العقل ليعي معنى النعم ثم بعد ذلك تستقر فى القلب فينفعل بها ، وتنتقل إلى الجوارح فأقوم وأصلى لله شاكرا ويهتز جسدى كله وتفيض الدمعة من عينى ... وينتقل هذا الإنفعال كله إلى من حولى .

ونفسر ذلك قليلا ... هب أننى فى ازمة أو كرب أو شئ سيؤدى إلى فضيحة وجاءنى من يفرج كربى فيعطينى مالا أو يفتح لى طريقا أول شئ أننى سأعقل هذا الجميل فأقول انه يستحق الشكر ثم ينزل هذا المعنى إلى قلبى فيهتز القلب إلى صانع هذا الجميل ثم تنفعل جوارحى لأترجم هذه العاطفة إلى عمل يرضيه على جميل صنعه ثم احدث الناس عن جميله وكرمه فيسارعون إلى الإلتجاء إليه ... فتتسع دائرة الحمد وتنزل النعم على الناس فيمرون بنفس ما حدث لى فتتسع دائرة الشكر والحمد .

والحمد لله تعطينا المزيد من نعم الله مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾

[الآية ٧ سورة إبراهيم]

وهكذا نعرف أن الشكر على النعمة تعطينا مزيدا من النعمة ... فنشكر عليها فتعطينا المزيد وهكذا يظل الحمد دائما والنعمة دائمة .. أننا لو إستعرضنا حياتنا كلها فكل حركة فيها تقتضى الحمد ، عندما ننام ويأخذ الله سبحانه وتعالى أرواحنا ، ثم يردها إلينا عندما نستيقظ ، فإن هذا يوجب الحمد ، فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿اللّه يَتَوَفَىَ الأنفسُ حينِ مَوتهَا وَالتي لم تمت فى منَامَهَا فَيُمسِكُ التِى قَضَىَعلَيْهَا المَوتَ وَيُرسَل الأخُرى إلى أجَلِ مُّسَمّى إنّ فِي ذَلِكَ لآياتِ لقَوم يَتَفَكّرُونَ﴾ [الآية ٤٢ سورة الزمر]

وهكذا فإن مجرد إستيقاظنا من النوم ، وإن الله سبحانه وتعالى رد علينا أرواحنا وهذا الرد يستوجب الحمد ، فإذا أقمنا من السرير فالله سبحانه وتعالى هو الذى يعطينا القدرة على الحركة ، ولولا عطاؤه ما إستطعنا أن نقوم ... وهذا يستوجب الحمد لله فإذا تناولنا الإفطار فالله هيأ لنا طعاما من فضله ، فهو الذى خلقه ، وهو الذى إنبته ، وهو الذى رزقنا به ، وهذا يستوجب الحمد .

فإذا نزلنا إلى الطريق يسر لنا ما ينقلنا إلى مقر أعمالنا وسخره لنا ، سواء كنا نملك سيارة أو نستخدم وسائل المواصلات ، فله الحمد ، وإذا تحدثنا مع الناس فالله سبحانه وتعالى هو الذى أعطى ألسنتنا القدرة على النطق ولو شاء لجعلها خرساء لا تنطق وهذا يستوجب الحمد ، فإذا ذهبنا إلى أعمالنا فالله يسر لنا عملا نرتزق منه لنأكل حلالا وهذا يستوجب الحمد.

وإذا عدنا إلى بيوتنا فالله سخر لنا زوجاتنا ورزقنا بأولادنا وهذا يستوجب الحمد .

إذن فكل حركة حياة فى الدنيا من الإنسان تستوجب الحمد ... ولهذا لابد أن يكون الإنسان حامدا دائما بل إن الإنسان يجب أن يحمد الله على أى مكروه أصابه ، لأنه قد يكون الشيء الذى يعتبره شرا هو عين الخير فالله تعالى يقول :

﴿يأيها الذين ءامنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما ءاتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيراً﴾

[الآية ١٩ سورة النساء]

إذن فأنت تحمد الله لأن قضاءه خير ... سواء أحببت القضاء أو كرهته فإنه خير لك لأنك لا تعلم والله سبحانه وتعالى يعلم ، وهكذا من موجبات الحمد أن تقول الحمد لله على كل ما يحدث لك فى دنياك فأنت بذلك ترد الأمر إلى الله الذى خلقك ، والذى يعلم ما هو خيراً لك.

إياك نعبدو وإياك نستعين

قبل ان نتكلم عن قول الحق تبارك وتعالى : ﴿**إياك نعبد واياك نستعين**﴾ لابد أن نتحدث عن قضية مهمة ... فهناك نوعان من الرؤية ... الرؤية العينية أى بالعين والرؤية الإيمانية أى بالقلب وكلاهما مختلف عن الآخر .

رؤية العين هى أن يكون الشيء أمامك تراه بعينيك ، وهذه ليس فيها قضية إيمان فلا تقول أننى أراك أمامى لانك ترانى فعلاً ... ما دمت تراني فهذا يقين .

ولكن الرؤية الايمانية هى أن تؤمن كانك ترى ما هو غيب أمامك وتكون هذه الرؤية أكثر يقيناً من رؤية العين لانها رؤية إيمان ورؤية بصيرة وهذه قضية مهمة ، وقد روى عمر بن الخطاب قال :

بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذا طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبته ووضع كفيه على فخذيه قال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ؟ فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ﷺ وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت أن استطعت إليه سبيلاً .

قال : فأخبرني عن الإيمان .

قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره .

قال : صدقت .

قال : فأخبرنى عن الإحسان .

قال : أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فإنه يراك .

قال : فأخبرنى عن الساعة .

قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

قال : فاخبرني عن أماراتها .

قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان .

قال : ثم انطلق فلبثت ملياً ... ثم قال لى النبى ﷺ :

يا عمر أتدرى من السائل ؟

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : فإنه جبريل اتاكم يعلمكم دينكم . (رواه مسلم) .

قول رسول الله : ((أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) هو بيان للرؤية الايمانية حتى إذا اقرا آية عن الجنة فكأنه يرى أهل الجنة وهم ينعمون وإذا قرأ آية عن أهل النار اقشعر بدنه وكأنه يرى أهل النار وهم يعذبون.

... ذات يوم شاهد رسول الله ﷺ أحد صحابته وكان اسمه الحارث فقال له :

كيف أصبحت يا حارث ؟

فقال : اصبحت مؤمناً حقاً .

قال الرسول : فانظر ما تقول : فإن لكل قول حقيقة فما حقيقية ايمانك ؟

قال الحارث : عزفت نفسى عن الدنيا . فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها (يتصايحون فيها) .

قال النبى : (يا حارث عرفت فالزم) .

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى وهو يخاطب الرسول ﷺ يقول :

﴿أَلَم تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصحَابِ الفِيلِ﴾ [الآية ١ سورة الفيل]

يأخذ بعض المستشرقين هذه الآية فى محاولة للطعن فى القرآن الكريم فقوله تعالى :﴿أَلَم تَرَ﴾ ورسول الله ﷺ ولد فى عام الفيل انه لم ير لأنه كان

طفل عمره أيام أو شهور ، لـو قـال اللـه سبحانه وتعـالى ألـم تعلم لقلنـا علـم مـن غيره... فالعلم تحصل عليه أنت أو يعطيه لك من علمه ... أى يعلمك غيرك مـن البشر ولكن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿أَلَم تَرَ﴾ .

نقول ان هذه قضية من قضايا الإيمـان فمـا يقول اللـه سبحانه وتعـالى هـو رؤية صادقة بالنسبة للإنسان المؤمن فالقرآن هـو كـلام متعبد بتلاوتـه حتـى قيام الساعة وقول الله : ﴿أَلَم تَرَ﴾ معناها أن الرؤية مستمرة لكل مؤمن يقرأ هذه الآية فما دام الحق تبارك وتعالى قال فأنت ترى بايمانك ما تعجز عينك عن أن تراه .. هذه هى أصدق من رؤية العين لأن العين قد تخدع صاحبها ولكـن القلـب المؤمـن لا يخدع صاحبه أبداً .

على أن هنـاك مـا يسـمونه ضمير الغـائب .. إذا قلـت زيـد حضـر .. فهـو موجود أمامك ولكن إذا قلت قابلت زيداً فكأن زيـداً غـائب عنـك سـاعة قلـت هـذه الجملة قابلته ولكنه ليس موجوداً معك ساعة الحديث .

إذن فهناك حاضر وغائب ومتكلم ... الغـائب هـو مـن ليس موجـوداً أو لا نراه وقت الحديث والحاضر هو الموجود وقت الحديث والمتكلم هو الـذى يتحـدث وقضايا العقيدة كلها ليس فيها مشاهدة ، ولكن الإيمـان بمـا هـو غيـب عنـا يعطينـا الرؤية الايمانية التى هى كما قلنا أقوى من رؤية البصر .

فالله سبحانه وتعـالى حيـن يقـول : ﴿**الحمـد للـه رب العـالمين**﴾ ... (اللـه) غيب و(رب العالمين) غيب .

والحق سبحانه وتعالى حين يقول : ﴿**إياك نعبد**﴾ ينتقل الغيب إلـى حضـور المخاطب فلم يقل إياه نعبد ولكنه قال ﴿**إياك نعبد**﴾ فأصبحت رؤية يقين إيمانى .

والله تبارك وتعالى حين يقول : ﴿**إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيَّـاكَ نَستَعِينُ**﴾ أى لا نعبـد

ولا نستعين إلا بك والاستعانة بالله سبحانه وتعالى تخرجك عن ذل الدنيا فأنت حين تستعين بغير الله فإنك تستعين ببشر مهما بلغ نفوذه وقوته فكلها في حدود بشريته . ولأننا نعيش في عالم الأغيار فإن القوى يمكن أن يصبح ضعيفاً وصاحب النفوذ يمكن أن يصبح في لحظة واحدة طريداً شريداً لا نفوذ له .. ولو لم يحدث هذا فقد يصون ذلك الذى تستعين به فلا تجد أحدا يعينك .

ويريد الله تبارك وتعالى أن يحرر المؤمن من ذل الدنيا فيطلب منه أن يستعين بالحى الذى لا يموت وبالقوى الذى لا يضعف ، وبالقاهر الذى لا يخرج عن أمره أحد وإذا استعنت بالله سبحانه وتعالى كان الله جل جلاله بجانبك وهو وحده الذى يستطيع أن يحول ضعفك إلى قوة وذلك إلى عز والمؤمن دائماً يواجه قوى أكبر منه ذلك أن الذين يحاربون منهج الله يكونون من الأقوياء ذوى النفوذ الذين يحبون أن يستعبدوا غيرهم ... فالمؤمن سيدخل في صراع بين الحق والباطل وقوله ﴿**اياك نعبد**﴾ مثل ﴿**اياك نستعين**﴾ ... أى نستعين بك وحدك وهى دستور الحركة فى الحياة لان استعان معناها طلب المعونة أى أن الإنسان استنفذ أسبابه ولكنها خذلته ... وحين تتخلى الأسباب فهناك رب الأسباب وهو موجود دائماً لا يغفل عن شيء ولا تفوته همسة فى الكون ولذلك فإن المؤمن يتجه دائماً إلى السماء والله سبحانه وتعالى يكون معه .

أهدنا الصراط المستقيم

بعد أن آمنت بالله سبحانه وتعالى إلها وربا واستحضرت عطاء الألوهية ونعم الربوبية وفيوضات رحمة الله على خلقه وأعلنت أنه لا إله إلا الله وقولك (إياك نعبد) أى أن العبادة لله تبارك وتعالى لا تشرك به شيئاً ولا نعبد إلا إياه .

وأعلنت أنك ستستعين بالله وحده بقولك (وإياك نستعين) فإنك قد أصبحت من عباد الله ويعلمك الله سبحانه وتعالى الدعاء الذى يتمناه كل مؤمن .. وما دمت من عباد الله ، فإن الله جل جلاله سيستجيب لك مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [الآية ١٨٦ سورة البقرة]

والمؤمن لا يطلب الدنيا أبدا .. لماذا؟

لأن الحياة الحقيقية للإنسان فى الأخرة فيها الحياة الأبدية والنعيم الذى لا يفارقك ولا تفارقه فالمؤمن لا يطلب مثلاً أن يرزقه الله مالاً كثيراً ولا أن يمتلك عمارة مثلاً لأنه يعلم أن كل هذا وقتى وزائل ولكنه يطلب ما ينجيه من النار ويوصله إلى الجنة .

ومن رحمة الله تبارك وتعالى أنه علمنا ما نطلب ... وهذا يستوجب الحمد لله وأول ما يطلب المؤمن هو الهداية والصراط المستقيم ﴿إهدِنَا الصِرَّاطَ المُستَقِيمَ﴾ والهداية نوعان : هداية دلالة وهداية معونة .. هداية الدلالة هى للناس جميعها وهداية المعونة هى للمؤمنين فقط المتبعين لمنهج الله والله سبحانه وتعالى هدى كل عباده هداية دلالة أى دلهم على طريق الخير وبينه لهم فمن أراد أن يتبع طريق الخير اتبعه ومن أراد ألا يتبعه تركه الله لما أراد ... هذه الهداية العامة هى أساس البلاغ عن الله فقد بين لنا الله تبارك وتعالى فى منهجه أفعل ولا تفعل ما يرضيه وما يغضبه وأوضح لنا الطريق الذى نتبعه لنهتدى والطريق الذى لو سلكناه حق علينا غضب الله وسخطه ولكن هل كل من بين له الله سبحانه وتعالى طريق الهداية اهتدى ؟

نقول لا واقرأ قوله جلا جلاله .

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهم فَاستَحَبُّواْ العَمَى عَلَى الهُدَى فَأَخَذَتْهُمَ صاعقةُ العَذَاب الهُونِ بِمَا كَانُواْ يكسبُونَ﴾ أذن هناك من لا يأخذ طريق الهداية بالاختيار الذى أعطاه الله له فلو أن الله سبحانه وتعالى ارادنا جميعاً مهديين ما استطاع واحد من خلقه أن يخرج على مشيئته ولكنه جل جلاله خلقنا مختاريين لنأتيه عن حب ورغبة بدلاً من أن يقهرنا على الطاعة .. ما الذى يحدث للذين اتبعوا طريق الهداية والذين لم يتبعوه وخالفوا مراد الله الشرعى فى كونه ؟

الذين أتبعوا طريق الهداية يعينهم الله سبحانه وتعالى عليه ويحببهم فى الإيمان والتقوى ويحبيبهم فى طاعته وأقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿وَالذِينَ اهتَدَواْ زَادَهُم هُدًى وءَآتاهم تَقوَاهُم﴾ [الآية ١٧ سورة محمد]

أى أن كل من يتخذ طريق الهداية يعينه الله عليه ويريده تقوى وحبا فى الدين آما الذين إذا جاءهم الهدى ابتعدوا عن منهج الله وخالفوه فإن الله تبارك وتعالى يخلى عنهم ويتركهم فى ضلالهم واقرأ قوله تعالى :

﴿وَمَن يَعشُ عَن ذِكرِ الرَّحمَنِ نُقَيِض لَهُ شَيَطاناً فَهُو لَه قَرِينٌ﴾

[الآية ٣٦ سورة الزخرف]

والله سبحانه وتعالى قد بين لنا المحرومين من هداية المعونة على الايمان وهم ثلاثة كما بينهم لنا القرآن الكريم :

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ استَحَبُّوا الحَيَاةَ الدُّنيَا عَلَى الأَخِرَة وأَنَّ اللَّه لاَ يَهدِى القَومَ الكَافِرِينَ﴾ [الآية ١٠٦ سورة النحل]

﴿ذَلِكَ أدنَى أَن يَأتُواْ بالشَّهَادَةَ عَلَى وَجهِهَآ أَو يَخَافُواْ أَن تُرَدَّ أيمَانٌ بَعدَ أيمَانِهِم وَاتَّقُواْ اللَهَ واسمَعُوا وَاللَّهُ لاَ يَهدِى القَومَ الفَاسِقِينَ﴾

[الآية ١٠٨ سورة المائدة]

﴿أَلَم تَرَ إِلَى الَّذِى حَآجَّ إِبَراهيم فِى رَبِّهِ أن ءَاتاهُ الله المُلكَ إِذ قَالَ إِبراهيم رَبِّىَ الَّذِى يُحيِ وَيمِيتُ قَالَ أَنَاْ أُحيِ وَأُميتُ قَال إِبَراهيم فَإِنَّ اللـه يَأتى بالشَّمسِ مِنَ المَشرِقِ فَاتِ بِهاَ مِنَ المَغرِبِ فَبُهتَ الذِّى كَفَرَ واللَّهُ لا يَهدى القَومَ الظَالِمِينَ﴾ [الآية ٢٥٨ سورة البقرة]

إذن فالمطرودون من هداية الله فى المعونة على الايمان هم الكافرون الفاسقون والظالمون .. الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ ما هو الصراط ؟

أنه الطريق الموصل إلى الغاية ... لماذا نص على أنه الصراط المستقيم ؟

لأن الله سبحانه وتعالى وضع لنا فى منهجه الطريق المستقيم وهو أقصر الطرق إلى تحقيق الغاية فأقصر طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم ولذلك إذا كنت تقصد مكاناً فأقصر طريق تسلكه هو الطريق الذى لا أعوجاج فيه ولكنه مستقيم تماماً .

ولا تحسب أن البعد عن الطريق المستقيم يبدأ باعوجاج كبير بل باعوجاج صغير جداً ولكنه ينتهى إلى بعد كبير ويكفى أن تراقب قضبان السكة الحديد عندما يبدأ القطار فى اتخاذ طريق غير الذى يسلكه فهو لا ينحرف فى أول الأمر إلا بضعة ملليمترات .. أى أن أول التحويلة ضيق جداً وكلما مشيت اتسع الفرق وأزداد إتساعاً بحيث عند النهاية تجد أن الطريق الذى مشينا فيه يبعد عن الطريق الأول عشرات الكيلو مترات وربما الكيلو مترات إذن فأى إنحراف مهما كان بسيطاً يبعدك عن الطريق المستقيم بعداً كبيراً وذلك فإن الدعاء (اهدنا الصراط المستقيم) أى الطريق الذى ليس فيه إعوجاج ولو بضعة ملليمترات الطريق الذى ليس فيه مخالفة تبعدنا عن طريق الله المستقيم .

لذلك فإن الإنسان المؤمن يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يهديه إلى أقصر الطرق للوصول إلى الغاية ... وما هى الغاية ؟

أنها الجنة والنعيم فى الآخرة ولذلك نقول يارب اهدنا وأعنا على أن نسلك الطريق المستقيم وهو طريق المنهج ليوصلنا إلى الجنة دون أن يكون فيه أى أعوجاج يبعدنا عنها .

ولقد قال الله سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى أنه إذا قال العبد : (اهدنا الصراط المستقيم) يقول الله جل جلاله : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل .

يقول الحق تبارك وتعالى ﴿**صراط الذين انعمت عليهم**﴾ ما معنى "الذين أنعمت عليهم" ؟ اقرأ الآية الكريمة :

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [الآية ٦٩ سورة النساء]

وأنت حين تقرأ الآية الكريمة فأنت تطلب من الله تبارك وتعالى أن تكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ... أى أنك تطلب من الله جل جلاله أن يجعلك تسلك نفس الطريق الذى سلكه هؤلاء لتكون معهم الآخرة .

فكأنك تطلب الدرجة العالية فى الجنة لأن كل من ذكرناهم لهم مقام عال فى جنة النعيم وهكذا فإن الطلب من الله سبحانه وتعالى هو أن يجعلك تسلك الطريق الذى لا أعوجاج فيه والذى يوصلك فى أسرع وقت إلى الدرجة العالية فى الأخرة .

فكأنك تطلب الدرجة العالية فى الجنة لأن كل من ذكرناهم فى مقام عال فى جنة النعيم وهكذا فإن الطلب من الله سبحانه وتعالى هو ان يجعلك تسلك الطريق الذى لا إعوجاج فيه والذى يوصلك فى أسرع وقت إلى الدرجة العالية فى الآخرة.

وعندما نعرف أن الله سبحانه وتعالى قال : **﴿هذا لعبدى ولعبدى ما سأل﴾** تعرف ان الإجابة تعطيك الحياة العالية فى الآخرة وتمتعك بنعيم الله ليس بقدرات البشر كما يحدث فى الدنيا ولكن بقدرة الله تبارك وتعالى وإن كانت نعم الدنيا لا تحصى ولاتعد فكيف بنعم الآخرة ؟ لقد قال الله سبحانه وتعالى عنها :

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [الآية ٣٥ سورة ق]

أى أنه ليس ما تطلبه فقط ستجده أمامك بمجرد وروده على خاطرك ولكن مهما طلبت من النعم ومهما تمنيت فالله جل جلاله عنده مزيد .. ولذلك فإنه يعطيك كل ما تشاء ويزيد عليه بما لم تطلب ولا تعرف من النعم وهذا تشبيه فقط ليقرب الله تبارك وتعالى صورة النعيم إلى أذهاننا ، ولكن الجنة فيها مالا عين رأت أذن ولا خطر على قلب بشر .

وبما أن المعانى لابد أن توجد أولاً فى العقل ثم يأتى اللفظ المعبر عنها .. فكل شىء لا نعرفه لا توجد فى لغتنا ألفاظ تعبر عنه فنحن لم نعرف اسم

التليفزيون مثلاً إلا بعد أن أخترع وصار له مفهوم محدد تماماً كما لم نعرف اسم الطائرة قبل أن يتم اختراعها فالشيء يوجد أولاً ثم بعد ذلك يوضع اللفظ المعبر عنه ولذلك فإن مجامع اللغات فى العالم تجتمع بين فترة وأخرى لتضع أسماء لأشياء جديدة اخترعت وعرفت مهمتها .

وما دام ذلك هو القاعدة اللغوية فإنه لا توجد الفاظ فى لغة البشر تعبر عن النعيم الذى سيعشه أهل الجنة لانه لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على القلب ولذلك فإن كل ما نقرؤه فى القرآن الكريم يقرب لنا الصورة فقط ولكنه لا يعطينا حقيقة ما هو موجود ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن الجنة فى القرآن الكريم يقول :

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [الآية ١٥ سورة محمد]

أى أن هذا ليس حقيقة الجنة ولكنها مثل فقط يقرب ذلك إلى الاذهان لأنه لا توجد ألفاظ فى لغات البشر يمكن أن تعطينا حقيقة ما فى الجنة .

وقوله تعالى : **﴿غير المغضوب عليهم﴾** .... أى غير الذين غضبت عليهم يا رب من الذين عصوا ومنعت عنهم هداية الاعانة الذين عرفوا المنهج فخالفوه وارتكبوا كل ما حرمه الله فاستحقوا غضبه .

ومعنى (غير المغضوب عليهم) أى يارب لا تيسر لنا الطريق الذى نستحق به غضبك كما استحقت أولئك الذين غيروا وبدلوا فى منهج الله ليأخذوا سلطة زمنية فى الحياة الدنيا وليأكلوا أموال الناس بالباطل .

وقد وردت كلمة (المغضوب عليهم) فى القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ﴾ [الآية ٦٠ سورة المائدة]

وهذه الآيات نزلت فى بنى اسرائيل .

وقول الحق تبارك وتعالى (ولا الضالين) هناك الضال والمضل ... الضال هو الذى ضل الطريق فأتخذ منهجاً غير منهج الله عز وجل ومشى فى الضلالة بعيداً عن الهدى وعن دين الله ويقال ضل الطريق أى مشى فيه وهو لا يعرف السبيل إلى ما يريد أن يصل إليه ... أى أنه تاه فى الدنيا فأصبح وليا للشيطان وابتعد عن طريق الله المستقيم ... هذا هو الضال ولكن المضل هو من لم يكتف بأنه ابتعد عن منهج الله وسار فى الحياة على غير هدى بل أن يأخذ غيره إلى الضلالة يغرى الناس بالكفر وعدم اتباع المنهج والبعد عن طريق الله وكل واحد من العاصين يأتى يوم القيامة يحمل ذنوبه ... الا المضل فإنه يحمل ذنوبه وذنوب من اضلهم مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿لِيَحمِلُوا أَوزَارَهُم كَامِلَةً يَومَ القِيَامَةِ وَمِن أَوزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيرِ عِلمٍ أَلَا سَآءَ مَايَزِرُونَ﴾ [الآية ٢٥ سورة النحل]

أى أنك وأنت تقرأ سورة الفاتحة تستعيذ بالله أن تكون من الذين ضلوا .. ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يأت هنا بالمضلين نقول ذلك لكى تكون مضلاً لابد أن تكون ضالاً أولاً فالاستعاذة من الضلال هنا تشمل الاثنين لأنك ما دمت قد استعذت من أن تكون ضالاً فلن تكون مضلاً أبداً .

بقى أن نتكلم عن قول (آمين) ... وهى أسوة برسول الله ﷺ الذى علمه جبريل عليه السلام أن يقول بعد قراءة الفاتحة آمين ، فهى من كلام جبريل لرسول ﷺ وليست كلمه من القرآن الكريم .

وكلمه آمين معناها استجب يارب فيما دعوناك به قولنا (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم) أى الدعاء هنا له شيء مطلوب تحقيقه وآمين دعاء لتحقيق المطلوب وكلمة آمين اختلف العلماء فيها آهى عربية أم غير عربية .

وهنا يثور سؤال ... كيف تدخل كلمة غير عربية فى قرآن حكم الله بأنه عربى ؟

نقول ان ورود كلمة ليست عربية فى القرآن الكريم ينفى أن القرآن كله عربى بمعنى أنه إذا خوطب به العرب فهموه وهناك الفاظ دخلت فى لغة العرب

قبل أن ينزل القرآن لكنها دارت على ألالسن بحيث أصبحت عربية وألفتها الاذان العربية .

... فساعه تقول (آمين) بعد قرأة الفاتحة أى أنا دعوت يارب فاستجب دعائى لانك لشدة تعلقك بما دعوت من الهداية فأنك لا تكتفى بقول اهدنا ولكن تطلب من الله الاستجابة وإذا كنت تصلى فى جماعة فأنت تسمع الامام وهو يقرأ الفاتحة ثم تقول آمين لان المأموم أحد الداعين الذى دعا هو الإمام ، وعندما قلت آمين فأنت شريك فى الدعاء ولذلك فعندما دعا موسى عليه السلام أن يطمس الله على أموال قوم فرعون ويهلكهم قال الله لموسى :

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعوَتُكُمَا فَاستَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعلَمُونَ﴾

[الآية ٨٩ سورة يونس]

أى أن الخطاب من الله سبحانه وتعالى موجه إلى موسى وهارون ولكن موسى عليه السلام هو الذى دعا وهارون آمنَ على دعوة موسى فأصبح مشاركاً فى الدعاء .

صفات أولو الألباب ودعائهم

من هم أولو الألباب ؟ وما دعائهم ؟

يجيب الحق سبحانه وتعالى :

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

[الآية ١٩١ سورة آل عمران]

إنهم يقولون :

﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ لأنك حق ، وخلقت السموات والأرض بالحق ، ووضعت لها نواميسها وقوانينها بالحق ، فيجب أن نستقبل النعمة التى خلقتها لنا بالحق . فإن استقبلها بعض الناس بغير حق ، فإنها تكون وبالاً عليهم . ويقال : إن المؤمن الصادق فى بنى إسرائيل قبل رسالة عيسى عليه السلام كان إذا عبد الله بإخلاص ثلاثين سنة فإن غمامة تظله حيث سار . فكانوا عندما يرون واحداً من هؤلاء يسير تظلله غمامة ، فهم يعرفون انه عبد الله بإخلاص ثلاثين عاما .

وعَبَدَ واحد منهم الله ثلاثين سنة ولم ير السحابة تظلله ، فشكا ذلك لأمه فقالت له : لعل شيئا فرط منك . فقال لها : يا اماه لا أذكر . فقالت له : لعلك نظرت مرة إلى السماء ولم تفكر . فقال لها : لعل ذلك حدث . فقالت : الذى يأتيك من ذاك .

وهذه القصة تذكرنا بضرورة التفكير فى الله دائماً.

ويروى عن سيدنا الإمام على – رضى الله عنه وكرم الله وجهه – أنه قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا استيقظ فى الليل ، استاك ، ثم نظر إلى السماء .

إذن النظر إلى السماء هو النظر إلى العلو والنظر إلى العلو هو تامل فى حكمه الخالق .

لكن النظـرة إلـى السماء تجعل الإنسـان يفطـن إلـى علـو الخـالق . ولذلـك فالعربى الذى إستلقى على ظهره نائما ، واستيقظ ففطن إلـى لـون السماء الأزرق البديع ، والنجوم تتلألأ فيها فقال : أشهد أن لك ربا وخالقا ، اللهم إغفر لـى . لقد عرف الرجل متى يدعو الله وكيف يدعو ، لذلك غفر الله له .

وفيما روت كتب السيرة عن رسول الله ﷺ أنه جاء ليلة ونـام ، وكـانت ليلة عائشة رضوان الله عليها . قالت عائشة لعبد الله بن عمر رضوان الله عليه: فنام بجوارى حتى مس جلدى جلده ، ثم قال : "يا عائشة هل تأذنين لى الليلـة فـى عبادة ربى" ؟

لقد إستأذن منها رسول الله فى حقها لأن الليلـة ليلتهـا . وأضـافت عائشـة : يارسول الله أنا أحب قربك وأحب هواك ،وقد أذنت لك .لقد إحتـاطت الإحتيـاط ، فهى تحب الرسول ، وتقول : "وأنـا أحب قربك" وهذا القول لـه معنـى جميـل ، وحدث أن قال بعض المتنطعين على دين الله : إن رسـول اللـه كـان كبير السـن بفارق كبير بينه وبين عائشة ، وقولها ذلك إنما عن زهد فيه .

لكنهـا عائشـة – رضـى اللـه عنهـا – ردت علـى ذلـك من قبل أن يقـال . فقالت: يارسول الله أنا أحب قربك وأحب هواك وقد أذنت لك . وهذا درس يعطيه لنا رسول الله ﷺ حتى نتعلم كيـف نعـامل أهلنـا ، حتـى ولـو كـان الأمـر الـذى يشغلنا عنهم هو العبادة ، وهو لا يريد أن ينشغل المؤمن عن رعاية أهله بعد أداء ما عليه من فروض ، حتى ولو كان عبادة إلا بعد إستئذان الأهل .

لماذا ؟ لأن الله طلب من الزوجة فى العبادة غير المفروضـة ألا تتطـوع حتـى تستأذن زوجهـا . فالزوجـة إن صـلت تطوعـا ، أو صـامت تطوعـا لابـد أن تسـتأذن زوجها ، فإن أذن لها ، فبها ، وإن لم يأذن لها أن تقوم بهذه العبادة غير المفروضة .

يقول رسول الله ﷺ : "خيركم .. خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى"

لأن الزوج حين يقرب زوجته فهو يريد أن يعفها عـن التطلعـات البشـرية ، لذلك فعندما تريد الزوجة ان تأخذ وقتهـا وخصوصـا إن كـان لهـا ضـرائـر ، فهـذا الوقت حق لها . فإن أراده الزوج للعبادة غير المفروضة فعليه أن يستأذنها . وقـد

تكون الحالة النفسية للمرأة فى عدم وجود ضرائر أكثر قدرة على قبول إستئذان الزوج لها ليفرغ للعبادة . ولذلك فأنت ترى من أهل الفتوى الإيضاح الناجح لمثل هذا الأمر .

لقد ذهبت إمرأة تشكو زوجها لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وكان مضمون الشكوى أن زوجها لا يقربها ، وكان عمر صحابى جليل . فقال له عمر بن الخطاب : أفتها . فقال الصحابى للزوج : يا هذا سنفرض أنك تزوجت أربعا ، فلزوجتك إذن ليلة بعد كل ثلاث ليال . وإذا كان الرسول ﷺ قد إستأذن عائشة فى عبادة ربه ، فهذا معناه درس للأزواج أن يحسنوا معاملة الأهل إحسانا لا يجعل للمرأة تطلعا .

لكننا نجد أناسا لا يستئذنون أهلهم لا فى العبادة ، ولا حتى فى سهرات المعصية .

وهذا ما يفسد البيوت والأسر . إن ما يفسد البيوت أن يكون الزوج مشغولا عن الزوجة ، ويذهب إلى أصحابه فى المقهى أو فى مكان آخر . ولا يهتم بأفراد أسرته .

لماذا لا يذهب إلى منزله ليؤانس أهله ؟ وليشبع رغبتهم ويجلس مع زوجته وأهله وأولاده وبذلك تطمئن الزوجة أن رجلها معها وليس فى مكان آخر ، وذلك حتى تستقر الأمور . إن رسول الله ﷺ يستأذن عائشة رضى الله عنها فتأذن له. قالت عائشة رضوان الله عليها :

"فقام إلى قربة فتوضأ ثم قام فبكى ثم قرأ فبكى ، ثم أثنى على الله وحمده فبكى ، حتى إبتلت الأرض ، ثم جاء بلال فقال : يا رسول الله صلاة الغداة . فرآه يبكى . فقال : يا رسول الله أتبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال رسول الله : أفلا أكون عبدا شكورا .. يا بلال لقد نزل على الليلة :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ واخْتِلافِ الَّيلِ وَ النَّهارِ لأَيَاتٍ لأُولِى

الألبَابِ (١٩٠) الذِينَ يَذْكُرُونَ اللّه قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِم وَيَتَفَكَّرُونَ فِـي خَلـقِ السَّموآتِ والأرضِ رَبَّنَا مَا خَلَقتَ هَذَا بَاطلاً سُـبحَانَكَ فَقِنَـا عَـذَابَ النَّـار (١٩١) رَبَّنَـا إنَّكَ من تُدخِلِ النَّارَ فَقَدأخزَيتَـهُ ومَـا لِلظَّـالمينَ مِـنْ أنصَـار (١٩٢) رَبَّنَـا إنَّنَـا سَـمِعنَا مُنَادِياً يُنَادِى لِلإيمَانِ أنْ ءَامنواْ بِرَبِكُمْ فَئَامَنَّـا رَبَّنَـا فَـاغفر لَنَـا ذُنُوبَنَـا وكَفِـر عَنَّـا سَيِئَاتِنَا وتَوفَّنَا مَعَ الأبْرار(١٩٣) رَبَّنَا وءَاتِنَا مَا وَعَدتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ولاَ تُخزِنَـا يَـومَ القِيَامَةِ إنَّكَ لا تُخلِفُ المِيعَادَ (١٩٤) فَاستَجَابَ لَهُم رَبُّهُم أنِى لا أُضيعُ عَمَلَ عَـامِلٍ مِنكُم مِن ذَكَرٍ أو أُنثَى بَعضُكُمْ مـن بَعْضٍ فَـالذين هَـاجَروا وَأُخرِجُـوا مـن دِيَـارِهِم وَأوزُواْ فِى سَبِيلِى وَقَاتَلُوا وقُتِلُوا لأُكَفِرَنَّ عَنُهُمْ سَيِئَاتِهِم ولأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجـرِى مِن تَحتِهَا الأنهَارُ ثَوَاباً من عِندِ اللّه واللّه عِندَهُ حُسنُ الثَّوابِ (١٩٥) لاَيَغُرَنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذين كَفَروا فِى البِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأواهُمْ جَهَنَّم وبِئْسَ المِهَادُ (١٩٧) لَكِـنِ الذين اتَّقَوا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَاتٌ تَجرِى مِن تَحتِهَا الأنهَارُ خَالِدِينَ فِيهاَ نُزُلاً مِـن عِنـدِ اللهِ وَمَا عِندَ الله خَيرٌ لِلأبْرارِ (١٩٨) وَإنَّ مِن أهلِ الكِتَـابِ لَمَـن يُؤمِـنُ بِاللّـه وَمَـا أُنزِلَ إليكُم وَمَا أُنزِلَ إليهِم خَاشِعِين للهِ لاَ يَشتَرُون بِأيَـاتِ اللّـه ثَمَنـاً قَليـلاً أُولَئِـكَ لَهُم أجرُهُم عِندَ رَبِهِم إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَـابِ (١٩٩) يَأيُهـا الَّذِيـن ءَامَنُـوا اصْـبِروا وَصَابِروا وَاتقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون (٢٠٠) ﴾ [سورة آل عمران]

وأضاف رسول الله ﷺ : "فويل لمن قرأها ولـم يتفكر فيهـا ، وويـل لمـن لاكها بين فكيه ولم يتأملها".

هـذا مـا جـاء عن سيدنا رسول اللـه فـى أواخـر سـورة آل عمـران ، تلـك الأواخر التى تبدأ بقوله تعالى ﴿إن فـى خلـق السـموات والأرض واختـلاف الليـل والنهار﴾ .

إن فى تلك الآيات المنهج والإستدلال ، واصطحـاب الحـق سبحانه وتعـالى وذكره على كل حال من القيام والقعود وعلى الجنـب . إن الحـق يقـول : ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض. ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾ .

ها نحن أولاً نرى أن مطلوب أولى الألباب هو أن يذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم . وقال بعض العلماء فى تفسير قول الحق : ﴿**الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم**﴾ إن المقصود بذلك هو الصلاة ، فمن لا يستطيع الصلاة قائما يصلى قاعدا .. ومن لا يستطيع قاعدا فليصلى مضجعا .

ونقول لهؤلاء العلماء : لقد خصصتم هذا المعنى حيث المقام للتعميم ، لماذا؟ لأن القرآن لايتعارض مع بعضه ، بل يفسر بعضه بعضا ، والحق يقول عند صلاة الخوف :

﴿**وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا**(١٠٢)﴾ [سورة النساء]

وحتى لا يظن المؤمن أن الفروض الخمسة هى التى يذكر فيها الله فقط قال سبحانه :

﴿**فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا**﴾

[الآية ١٠٣ من سورة النساء]

أى إن حصلت الصلاة أولا ، وحصلت الصلاة ثانيا ، كان ذكر الله أمر متصل واجب فى الصلاة ، وفى غيرها ، وبعدها يتفكر المؤمنون فى خلق السموات والأرض ويعترفون أنه سبحانه لم يخلق هذا باطلا . ويكون المطلوب أن يقولوا :

﴿**سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [من الآية ١٩١ سورة آل عمران]

لماذا ؟ لأن كل هذا الذكر لا يوفى حق ربنا علينا .. لذلك قالوا :

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدخِلِ النَّار فَقَد أَخْزَيتَهُ وَمَا للظَّالِمِينَ مِن أَنصَار﴾

[الآية ١٩٢ سورة آل عمران]

إنها العظمة ، فهم لا يذكرون عذاب من يدخل النار ، ولكنهم يذكرون خزى الله لمن دخل النار . وكأن الخزى مرتبة أشر من عذاب النار ، فمن الذى أعطانا كل هذا الفضل ، إنه - سبحانه - أعطانا توفيقنا لذكره ، وتوفيقا لنتفكر فى خلق السموات والأرض ، فهل يصح ان نقابله بكفران النعمة ؟ وما الذى يحدث لهؤلاء الذين يدخلون النار ؟

إنه لخزى والعياذ بالله . **﴿وما للظالمين من أنصار﴾** أى وليس لهم انصار يمنعون عنهم عذاب النار .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادى للإِيمانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَئامَنَّا رَبَّنَا فَاغفِر لَنَا ذُنُوبَنَا وكَفِر عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣)﴾

فكأن الإنسان بقلبه وفكره قبل أن يجيئ له الرسول يجب أن يتنبه إلى ما فى الكون من آيات ، وعليه أن يستشرف أن وراء الكون قوة ، ولكن هذه القوة مبهمة فى ذهنه . ما هى ؟ إنه يرى الكون العجيب فيقول لنفسه : من المستحيل أن يكون هذا الكون بلا خالق . إن وراءه قوة لها حكمة ولها قدرة . هذا قصارى ما يصل إليه العقل ولكن أيستطيع العقل أن يدرك أن القوة إسمها الله ؟ أيستطيع العقل أن يدرك ماذا تطلب القوة منه ؟

لا . إذن لابد من رسول يبلغ عن تلك القوة . ولذلك قلنا : إن تلك هى الزلة التى وقع فيها الفلاسفة ، لأن الفلاسفة هم الذين بحثوا وراء المادة . ونحن نعلم أن العلم ينقسم إلى قسمين ، قسم مادى قائم على التجربة ، وقسم ميتافيزيقى يبحث فيما وراء المادة . وهذا العلم متاهة الفلاسفة . وهو المضلة التى لم تلق فيها مدرسة بمدرسة ، ولا تلميذ فى مدرسة مع تلميذ آخر فى مدرسة .

لماذا لم يلتقون ؟ لأنهم يبحثون وراء المادة . وما وراء المادة غيب . والغيب لا يدخل المعمل . لكن المادة تدخل المعمل . والمعمل عندما يعطى نتائج تحليلات لا يجامل فى هذه النتائج . فالذى يدخل التجربة العلمية فى المعمل بنزاهة فالمعمل يعطيه . والذى يدخل بغير نزاهة لاتعطيه المعامل شيئا .

ولذلك نقول دائما : إننا لا نجد فى العلوم المادية فارقا بين علم شيوعى روسى ، وعلم أمريكى رأسمالى ، فلا توجد كيمياء رأسمالية أو كيمياء شيوعية ولا توجد كهرباء روسية وأخرى أمريكية . إنها كيمياء واحدة ، وكهرباء واحدة لأنها ابنة المعمل وبنت التجربة المادية .

ومن العجيب الذى لا يفطن له الخلق المغرورون من هؤلاء أننا نجد العلم المادى ابن التجربة والمعمل والمادة الصماء التى لا تجامل يحاول كل معسكر أن يسرقه من غيره ، ونجد الجواسيس يسافرون من معسكر إلى معسكر ليسرقوا تصميمات الطائرات والصواريخ . وان بعضهم يتلصص على بعض حتى يعرفوا العلم المادى .

لكن ماذا عن علم الأهواء والنظريات ؟ إننا نجد أن كل طرف يقيم جدار حتى لا يخترق علم الأهواء المجتمع .

هم يقيمون الحواجز فى الأهواء ولكن فى العلم المادى يتحولون إلى لصوص .

فلماذا لا يأخذون الأهواء مع العلم المادى ؟ إن كل معسكر حريص على العداء مع مذاهب الغير فى الحكم والإجتماع والإقتصاد . لكنهم فى العلم المادى يسرق بعضهم بعضا ، لأن المذاهب النظرية تتبع الأهواء ، لكن العلم المادى – كما قلنا – يتبع الحقيقة المعملية التى لا تجامل .

إذن فساعة يفكر الإنسان بعقله لابد ان يقول : إن وراء خلق الكون قوة خارقة .

وقد عرفها العربى بفطرته فقال : البعرة تدل على البعير والقدم تدل على المسير ، أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير ؟ !!

إنه دليل فطرى ، يدلك على وجود القوة ، لكن ما إسم هذه القوة ؟ لا نعرف .

إذن فالأذن تستشرق إلى من يدلها على إسم هذه القوة . فإذا جاء واحدا وقال : أنا مرسل من ناحية هذه القوة ، وأنّ إسمها الله ، كان من المفروض أن تتهافت الناس عليه ، لأنه سيحل لها اللغز الذى يشغلهم ، لذلك فالمؤمنون يقولون:

﴿رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ ءامِنُواْ بِرَبِّكُم فَئَامَنَّا﴾

[سورة آل عمران]

كأن ذهن كل واحد فيهم كان مشغولا بضرورة التعرف على الخالق . وبعد ذلك يقولون :

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فقد أَخْزَيْتَه وَمَا للظَّالِمينَ مِن أنصَارٍ﴾

[من الآية سورة آل عمران]

فأول حاجة فكروا فيها هى درء المفسدة ، لأن أفاضل الناس يتهمون أنفسهم بالتقصير دائما ، لذلك قالوا : **﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا﴾**.

وعندما ننظر إلى معطيات القرآن نجد أن "الذنب" شئ ، و"السيئة" شئ آخر. فالذنب يحتاج إلى غفران ، والسيئة تحتاج إلى تكفير ، وعلى سبيل المثال "كفارة اليمين" تكون واجبة إذا ما أقسم المؤمن يمينا وحنث فيه ، وهذا التفكير هو المقابل للحنث فى اليمين ، أما الأشياء التى تتعلق بالمعصية بين العبد وربه فهى الذنب ، والسيئة هى الأمر الذى يخالف منهج الله مع عباد الله . فحين تفعل المعصية فى امر بينك وبين الله فأنت لم تسيئ إلى الله ، فمن أنت أيها الإنسان من منزلة الله ؟ لكنك بالمعصية تذنب ، والذنب تأتى بعده العقوبة . أما مخالفة منهج الله مع عباد الله فهى سيئة ، لأنك بها تكون قد أسأت .

لذلك فالمؤمنون قالوا : ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا﴾ .

ومن الذى هداهم إلى معرفة أن هناك فرقا بين الذنب والسيئة ، وأن الذنب يحتاج إلى غفران وأن السيئة تحتاج إلى تكفير ؟ إنه الرسول ﷺ حامل الرسالة من الله . وهو الذى علمنا الفرق بين الذنب والسيئة . فقد كان جالسا بين أصحابه فأخذته سِنة من النوم ، ثم إستيقظ فضحك .

فعن أنس رضى الله عنه قال : "بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر رضى الله عنه : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : رجلان جثيا من أمتى بين يدى رب العزة فقال أحدهما : يا رب خذ لى مظلمتى من اخى . قال الله : أعط أخاك مظلمته . قال يا رب : لم يبق من حسناتى شئ ، قال : يا رب يحمل عنى من أوزارى . وفاضت عين رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال : إن ذلك ليوم عظيم ، يوم يحتاج الناس إلى أن يُتَحَمّل عنهم من أوزارهم . فقال الله للطالب : ارفع بصرك فانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال: يارب أرى مدائن من فضة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذا ؟ لأى صديق هذا ؟ لأى شهيد هذا ؟ قال : هذا لمن أعطى الثمن . قال : يا رب ومن يملك ثمنه ؟ قال : أنت . قال : بماذا ؟ قال : بعفوك عن أخيك . قال يا رب قد عفوت عنه ، قال : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة . ثم قال رسول الله ﷺ : إتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يُصلح بين المؤمنين يوم القيامة" .

هذا هو معنى التفكير أى أن تتحمل ، ، لذلك نقول فى الدعاء كما عُلمّنا : "اللهم ما كان لك منها فاغفره لى ، وما كان لعبادك فتحمله عنى" أى أن العبد يطلب أن يراضى الحق عباده من عنده ، وما عنده لا ينفد ابدا .

والعباد المؤمنون يقولون : ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا

وتوفنا مع الأبرار﴾ أى إختم لنا سبحانك هذا الختام مع الأبرار . ومن بعد ذلك يأتى قوله تعالى حكاية عنهم :

﴿رَبَّنَا وَءاتِنا ما وَعدتَّنا عَلَى رُسُلك ولا تُخْزِنا يَومَ القِيامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخلِفُ المِيعَادَ (١٩٤)﴾ [سورة آل عمران]

أى ربنا أعطنا ما وعدتنا على لسان رسلك ، ولتسمع قول الحق استجابة لهم :

﴿فَاستَجَابَ لَهُم رَبُّهُم أنِّى لا أضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُم مِن ذَكَرٍ أو أُنثَى بَعضُكُم من بَعضٍ فَالَّذِين هَاجَروا وأُخرجوا مِن دِيَارِهِم وأُذوا فى سَبِيلى وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِرَنَّ عَنْهم سَيئاتهم ولأُدخِلَنَّهُم جَنَّاتٍ تَجْرِى من تَحتِها الأَنْهَارُ ثَوابَاً مِن عِندِ اللَّه وَاللَّه عِندَهُ حُسنُ الثَّوابِ (١٩٥)﴾ [سورة آل عمران]

ولنر اللفتة الجميلة فى الإستجابة : **﴿فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾** لقد كانوا يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ويخشون خزى الدخول إلى النار . ودعوا الله بغفران الذنوب وتكفير السيئات . ودعوا الله ان يأتيهم ويعطيهم ما وعدهم به على ألسنة الرسل .

لم يقل الحق سبحانه : استحيت لكم ، لكنه جعل الإستجابة هى قبول العمل فقال : **﴿أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أوأنثى ﴾** فليست الحكاية كلاما يقال ، إنما يريد الله أن تدخل هذه المسائل فى حيز التطبيق والنزوع العملى ؛ فالمسألة ليست بالتمنى فقط ، فقد وضع سبحانه الشرط الواضح وهو العمل ، فمن يريد إستجابة الحق فلابد له من العمل . إن التفكير فى بديع صنع الله لا يغنى عن العمل ، لأن الحق سبحانه يريد التفكير فيه وانت تعمل فى أسبابه . فأسباب الحق لا تشغلك عنه .

دعاء المستضعفين من المؤمنين

﴿وَمَا لَكُم لاَ تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ والمُستَضعَفِينَ مِنَ الرِجَالِ وَالنِسَآءِ والوِلدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أخرِجنَا مِن هَذِهِ القَريَةِ الظَّالِمِ أَهلُهَا وَاجعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً﴾ [ا ية ٧٥ سورة ال عمران]

وا ية تبدأ بالتعجيب ، ذلك أنه بعد إيضاح لون الجزاء على القتال فى سبيل الله كان لابد أن يصير هذا القتال متسقاً مع الفطرة الإنسانية ، ونحن نقول فى حياتنا العادية : وما لك لا تفعل كذا ؟ كأننا نتساءل عن سبب التوقف عن فعل يوحى به الطبع ، والعقل . فإن لم يفعله الإنسان صار عدم الفعل مستغرباً عجيباً. فالقتال فى سبيل الله بعد أن أوضح الله أنه يعطى نتائج رائعة ، فالذى لا يفعله يصبح مثاراً للتعجب منه ، ولذلك يقول الحق : ﴿**ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله**﴾ أى لإعلاء كلمة الله ، ومرة يأتى القتال وذلك بأن يقف الإنسان المؤمن بجانب المستضعف الذى أوذى بسبب دينه ، ويكون ذلك ايضاً لإعلاء كلمة الله .

يقول سبحانه : ﴿وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين﴾ أى أن القتال يكون فى سبيل الله وفى خلاص المستضعفين ، وفى ذلك استثارة للهمم الإنسانية حتى يقف المقاتل فى سبيل رفع العذاب عن المستضعفين ، بل إننا نقاتل ولو من باب الإنسانية لأجل الناس المستضعفين فى سبيل تخليصهم من العذاب ؛ لأنهم ما داموا صابرين على الايمان مع هذا العذاب ، فهذا دليل على قوة الايمان، وهم أولى أن ندافع عنهم ونخلصهم من العذاب .

ويعطينا سبحانه ذلك فى أسلوب تعجب : ﴿**وما لكم لا تقاتلون فى سبل الله والمستضعفين**﴾ فكأن منطق العقل والعاطفة والدين يحكم أن نقاتل ، فإذا لم نقاتل ، فهذه مسألة تحتاج إلى بحث .

وساعة يطرح ربنا مثل هذه القضية يطرحها على أساس أن كل الناس يستوون عند رؤيتها فى أنها تكون مثاراً للعجب لديهم ، مثلها مثل قول الحق : ﴿كَيفَ تَكفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [من ا ية ٢٨ سورة البقرة]

يعنى كيف تكفرون بربنا أيها الكفار ؟ إن هذه مسألة عجيبة لا تدخل فى العقل ، فليقولوا لنا إذن : كيف يكفرون بربنا ؟

﴿وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال﴾ وكلمة "المستضعفين" يأتي بعدها "من الرجال" والمفروض فى الرجل القوة ، وهذا يلفتنا إلى الظرف الذى جعل الرجل مستضعفاً ، ومَنْ يأتى بعده أشد ضعفاً . **﴿المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا﴾** فقد بلغ اضطهاد الكفار لهم أن يدعوا الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها، والقرية هى "مكة" .

وقصة هؤلاء تحكى عن أناس من المؤمنين كانوا بمكة وليست لهم عصبية تمكنهم من الهجرة بعد أن هاجر رسول الله ﷺ ، فهم ممنوعون من أن يهاجروا، وظلوا على دينهم ، فصاروا مستضعفين : رجالا ونساء وولدانا فالاضطهاد الذى أصابهم اضطهاد الذى أصابهم اضطهاد شرس لم يرحم حتى الولدان ، فيقول الحق للمؤمنين : **﴿وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾** .

وهؤلاء عندما استضعفوا ماذا قالوا ؟ . قالوا : **﴿ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً﴾** وعبارة الدعاء تدل على أنهم لن يخرجوا بل سيظل منهم أناس وثقوا فى أنه سوف يأتيهم ولىّ يلى أمرهم من المسلمين، فكأنها أوحت لنا بأنه سيوجد فتح لمكة . وقد كان .

لقد جعل الله لهم من لدنه خير ولىّ وخير ناصر وهو محمد ﷺ فتولاهم أحسن التولى ونصرهم أقوى النصر .

هذه الجماعة من المستضعفين منهم "سلمة بن هشام" لم يستطع الهجرة ،

ومنهم "الوليد بن الوليد" و "عياش بن أبى ربيعة" ، و"أبو جندل بن سهيل بن عمرو" . وسيدنا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : لقد كنت أنا وأمى من هؤلاء المستضعفين من النساء والولدان ، وكانوا يضيقون علينا فلا نقدر أن نخرج ، فمثل هؤلاء كان يجب نصرتهم ، لذلك يحنن الله عليهم قلوب إخوانهم المؤمنين ويهيج الحمية فيهم ليقاتلوا فى سبيلهم ؛ فظلم الكافرين لهم شرس لا يفرق بين الرجال والنساء ولوالدان فى العذاب .

﴿الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ وكان رسول الله والمسلمون نصراء لهم.

لا ملجأ من الله إلا إليه

قال الله تعالى :

﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [آية ١١٨ سورة التوبة]

الحق سبحانه وتعالى لم يقفل باب التوبة بل جعله مفتوحاً أمام الإنسان ، حتى لمن كفر فلا يظن أن سابق كفره أو كتمانه أو ترخيه عن نصرة الحق سيغلق أمامه الباب ، أو يحول بينه وبين ربه ، لذلك يقول الحق :

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [آية ١٦٠ سورة البقرة]

أى أعلنوا التوبة وهى أمر ذاتى ، واصلحوا بمقدار ما أفسدوا ، وبينوا للناس بمقدار ماكتموا ، إذن شروط التوبة أن يعود كل حق لصاحبه فالذى كتم شيئاً عليه أن يبينه ، فالكتمان لا يؤثر فقط فى العلاقة بين العبد والرب ، ولكنه يضر العباد ، والحق سبحانه حين يفتح باب التوبة للعبد يقول :

﴿تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [آية ١١٨ سورة التوبة]

ومادة (تاب) تعنى الرجوع إلى الله ، فعندما يتوب العبد فهو يعود إلى ربه طالباً المغفرة عن العصيان والذنب ، وعندما يتوب الله على عبد ، فذلك يعنى أن الله قبل توبته ، فبعد أن كان مقدراً له أن يعذب فإن الله يعفو عنه فلا يعذبه ، إذن فالتوبة كلها رجوع إلى الله ، وحين تقدم التوبة من الله على التوبة من العباد فى قوله : **﴿تاب عليهم ليتوبوا﴾** فمعنى ذلك أن الحق شرع التوبة وقننها ليفتح باب الرجوع إليه ، فهناك ثلاث مراحل للتوبة :

المرحلة الأولى : هى أن الله شرع التوبة .

المرحلة الثانية : هى أن يتوب العبد .

المرحلة الثالثة : أن يقبل الله التوبة .

وكلها تعنى الرجوع عن المعصية والذنب .

إذن فأى إنسان يذنب ذنباً لابد أن يصلح هذا الذنب من جنس ما فعل ، فإن فعل ذنباً سرا فيكفيه أن يتوب سراً ، أما إن كسر حدود الله علنا ، فنقول له : لا يستقيم أبداً أن تعصى الله علنا أمام الناس وتكون أسوة سيئة لأناس تجعلهم يتجرأون ويكسرون حدود الله ثم تتوب بينك وبين الله سراً ، لابد أن تكون توبتك علنا ولذلك فالمثل العاصى يقول وتضربنى فى شارع وتصالحنى فى حارة" .

إن الذى يكسر حداً من حدود الله أمام الناس نقول له : لابد أن تعلن توبتك أمام الناس جميعاً ، ولذلك نحن ندرأ الحدود بالشبهات ، لكن الذى يتباهى بأنه ارتكب الذنب لا نتركه ، مثل الذى شهد عليه أربعة بأنه ارتكب ذنباً من الكبائر كالزانى ، لقد ظل يفعل الذنب باستهتار إلى أن شهد عليه أربعة ، هل يعقل أن نقول له : ندرأها بالشبهات ؛ لا هو كسر الحد علنا فوجبت معاقبته باقامة الحد .

وأما الذين تابوا وأصلحوا ما افسدوه وبينوا للناس ما كتموه فجزاؤهم توبة من الله .

ومن لطف الله بالإنسان أن شرع التوبة حتى يشعر الناس بالذنب ، وجعلها من فعل التائب ، ومن فعل قابل التوبة ، والله سبحانه وتعالى قال : "تابوا" و "أتوب" كل ذلك حتى لا يستشعر الإنسان عندما يرتكب ذنباً ويتوب أنها مسألة مستعصية ، إن الحق يقول : ﴿فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾ إنه سبحانه يتوب على من تاب عن الذنب ويتوب على المذنبين جميعاً ، فهو تعالى "تواب" .

دعاء سيدنا موسى

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

[آ ية ١٥١ سورة الاعراف]

... قال سيدنا موسى يارب أغفر لى إن كان قد بدر منى شىء يخالف منطق الصواب والحق وأغفر لأخى هارون فقد كان يجب عليه أن يأخذ فى قتال من عبدوا العجل حتى يمنعهم أو ينالوا منه ولو ما دون القتل جرحا أو خدشاً .

ويطلب موسى أيضاً لنفسه ولأخيه الرحمة :

﴿وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾ [من ا ية ١٥١ سورة الاعراف]

وحين تسمع (أرحم الراحمين) ، أو (خير الرازقين) ، أو (خير الوارثين) ، (أحسن الخالقين) ، وكل جمع هو وصف الله ، وإنه بهذا أيضاً يدعو خلقه إلى التخلق بهذا الخلق ، ويوصف به خلقه .

فاعلم أن الله لم يحرمهم من وصفهم بهذه الصفات لأن لهم فيها عملاً وإن كان محدوداً يتناسب مع قدرتهم ومخلوقيتهم وعبوديتهم ، فضلاً على أنها عطاء ومنحه منه – سبحانه – أما صفات الله فهى صفات لا محدودة ولا متناهية جلالا وكمالا وجمالاً فسبحانه وتعالى (ليس كمثله شىء) .

فإذا كان الله هو (أرحم الراحمين) فهذا يعنى أنه سبحانه وتعالى لم يمنع الرحمة من خلقه على خلقه ، فمن رحم أخاه سمى رحيماً وراحماً .

ولكن الله عز وجل أرحم الراحمين ، لأن الرحمة من كل إنسان ضمان لفطرية الغضب فى هذا الأحد ، يقال "رحمت فلاناً" أى من غضبك عليه وعقوبتك... وإن عقوبتك على قدر قوتك .

لكن الله سبحانه وتعالى حين يريد أن يأخذ واحداً بذنب فقوته لا نهاية لها وكذلك رحمته أيضاً لا نهاية لها .

كيف ندعو الله

﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [من الآية ٢٩ سورة الاعراف]

الدعاء طلب من عاجز يتجه به لقادر فى فعل يحبه الداعى وحين تدعو ربك ادعه مخلصاً له الدين بحيث لا يكون فى بالك الأسباب .

لان الاسباب إن كانت فى بالك فأنت لم تخلص الدين ، لأن معنى الاخلاص هو تصفية أى شيء من الشوائب التى فيه ، والشوائب فى العقائد وفى الاعمال تفسد الإتقان والإخلاص ، وإياكم ان تفهموا أن أحداً لا تأتى له هذه المسألة ، فرسول الله ﷺ يقول :

((إنى ليغَانُ على قلبى وإنى لأستغفر الله كل يوم مائة مرة))[1] .

إذن فالإخلاص عملية قلبية ، وأنت حين تدعو الله ادعه دائماً عن أضطرار ومعنى الاضطرار .

ان ينقطع رجاؤك وأملك بالأسباب كلها فذهبت للمسبب وما دمت مضطراً سيجيب ربنا دعوتك لأنك استنفدت الأسباب ، وبعض الناس يدعون الله عن ترف، فالإنسان قد يملك طعام يومه ويقول : ارزقنى ، ويكون عنده سكن طيب ويقول: أريد بيتاً أملكه .

إذن فبعضنا يدعو بأشياء لله فيها أسباب ، فيجب أن نأخذ بها ، وغالبية دعائنا عن غير اضطرار ... وأنا أتحدى أن يكون إنسان قد أنتهى به أمر إلى الاضطرار ولا يجيبه الله .

---

(١) رواه مسلم فى الذكر والدعاء باب استجاب الاستغفار ، وأبو داود فى الصلاة والنسائى فى عمل اليوم ، الامام أحمد ٢١١/٤ ومعنى (ليُغَانُ) ما يتغشى القلب وقيل الفترات والغفلات عن الذكر ، أو همه بسبب أمته فيستغفر لها .

المحتويات